أمين سلامة

هيلين طروادة

إلياذة هوميروس

هيلين طروادة

إلياذة هوميروس

تأليف
أمين سلامة

هنداوي

هيلين طروادة

أمين سلامة

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ٨٣٢٥٢٢ ١٧٥٣ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: ولاء الشاهد

الترقيم الدولي: ٥ ٣٧٠١ ٥٢٧٣ ١ ٩٧٨

صدر هذا الكتاب عام ١٩٥٦.
صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٤.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب وتصميم الغلاف محفوظة لمؤسسة هنداوي.
جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي محفوظة لأسرة السيد الأستاذ أمين سلامة.

المحتويات

الإهداء ٧
مقدمة ٩
١- أسباب حصار طروادة ١٣
٢- كيف اصطدم أشيل مع أجاممنون ٢١
٣- مجلس الشورى ٣١
٤- القتال بين باريس ومينيلاوس ٣٩
٥- كيف أصيب مينيلاوس، وأعمال ديوميديس الرائعة ٤٧
٦- هكتور وأندروماخي ٥٥
٧- القتال بين هكتور وأجاكس ٥٩
٨- حرق الموتى ومعركة السهل ٦٣
٩- وفد الرسل إلى أشيل ٧١
١٠- جياد ريسوس البيضاء ٧٥
١١- معركة السَّهل ٨٣
١٢- كيف قاتل باتروكلوس حتى لقي حتفه ٨٧
١٣- نهوض أشيل ٩٣

الإهداء

إلى مصر في عهدها الجديد

إلى وطني في ثوبه القشيب

إلى أهلي ... وأصدقائي

إلى الشباب والشبيبة

إلى «ن»

مُلهمتي الكبيرة

أمين سلامة

مقدمة

«إلياذة هوميروس» تراث خلَّده التاريخ، وتحدثت به البشريَّة وما زالت، ولسوف تفخر به إلى يوم القيامة … طالما هناك من يهوَى الأدبَ ويعشقه، ومن يفهمه ويتذوقه …

ولا شكَّ أنني لستُ أولَ من يُقدم الإلياذة بالعربية إلى القُرَّاء … فهناك غيري من تناولوها بالترجمة الرصينة، وحرصوا على أن يقدموها لعُشَّاق الأدب كما سطرها هوميروس، فطحل شعراء الإغريق بلا جدال، ورائد الشعراء في العالم أجمع بلا نزاع، وأول من حيَّر الألبابَ بسحر أسلوبه، وجمال موضوعه، ورصانة أشعاره، وأعظم من فرض نفسه على التاريخ، لا بأشعاره التي تزيد على مائة ألف بيت من الشعر، ولكن كأبرع من استطاع بقصتيه الإلياذة والأوديسة أن يُشبعَ نَهَمَ الشعوب في جميع الأمم والبلاد، وفي جميع العصور والأزمان، ويُرضيَ ذوقهم، ويحظى بإعجابهم، ويجبرهم على الإشادة به وبأشعاره، كأحسن ما يمكن للعقل البشري أن يكتب، وأرفع ما يستطيع الفكر الإنساني أن يصل إليه.

وما «هيلين طروادة»، موضوع هذا الكتاب، إلا ملخص شافٍ لإلياذة هوميروس، تلك الدُّرة الغالية، والجوهرة النادرة، والقصَّة التي لا ضريب لها منذ أن عرفت البشريَّة معنى الأدب، وذاقت حلاوته وطلاوته …

وما من شكٍّ في أن أعمال هوميروس الأدبيَّة هي التي رفعته إلى هذه الذروة الشامخة بين سائر الأدباء، كما أن منظومتيه — الإلياذة والأوديسة — هما اللتان أوحتا إلى غيره من الشعراء والأدباء بالكثير مما كتبوه لنا من أشعار لا إخال إلا أنها كانت مثارَ إعجابنا؛ فاستذقناها واستمرأناها، واشتهينا تلاوتها من حينٍ إلى حين.

وقارئ هذا الكتاب لن يعدم شيئًا من صلب ما كتبه هوميروس في إلياذته ... ولن يفقد شيئًا من طلاوتها وسلاستها، وما يجري بين سطورها من لفظٍ رصينٍ وتعبيرٍ جميلٍ وتشبيهٍ فريدٍ ...

بيد أن الحديث عن قصة «هيلين طروادة» يجرُّنا إلى الكلام عن أبطال هذه القصَّة التي خلدت أشخاصهم بخلود هذه القصَّة أو الذين لولاهم — وهذا هو الأصح — ما خُلدت القصَّة هذا الخلود السرمدي ...

فهاك أشيل — بطل الإغريق الأكبر — الذي غطسته أمُّه وهو طفلٌ في مياه أحد الأنهار المقدسة ليكون غير قابل للجرح، ولكن المياه لم تصل إلى عقبيه إذ كانت تمسكه أمُّه منهما ...

ولم يكُ أشيل هذا بطلًا مغوارًا، ومحاربًا جبَّارًا فحسب، بل كان متدربًا أيضًا على فنون الطب والشعر والموسيقى ومبادئ العدل والإنصاف ...

شاعت حول أشيل هذا نبوءة تقول بأنه سيموت صغيرًا في طروادة ... فلما وصل نبأ الحرب الطروادية إلى مسامع والديه، دثرا الصبي في ملابس الفتيات، وأرسلاه ليعيش بين بناتِ أحدِ الملوكِ، فلما أعلنت الكهنةُ أنه لا يمكن التغلب على طروادة بدون مساعدة أشيل، أُرسل الأبطال أوديسيوس وفوينكس ونسطور للبحث عنه ... فلما وصلوا إلى حيث هو تنكَّر أوديسيوس في هيئة بائع جوال عرض بضائعه على بناتِ الملك، فاختار جميعُ الفتيات بعضَ المصوغات، وكشف أشيل عن نفسه باختياره الأسلحة.

وهاك هكتور، قائد الطرواديين في الحرب الطروادية، وأعظم قادتهم ومحاربيهم بلا جدال ...

ولقد لعب هكتور هذا دوره في الإلياذة محاربًا شجاعًا، وبطلًا صنديدًا صبورًا، وابنًا عزيزًا لطيفًا، وزوجًا محبوبًا، ووالدًا يخشى لوم اللائم وانتقاد الأعداء ... محبوب من شعبه وذويه ... ومن ثمَّ فهو إحدى الشخصيات البارزة الجذَّابة في قصة «هيلين طروادة».

ولئن أثبت أشيل جدارته في طروادة كقائد، وبراعته كمحارب سريع الخُطى، ومصدر فزعٍ للأعداء ... فكفى أن نسجل لهكتور موقفه الخالد حينما انبرى لأشيل في ثبات الليث الهصور، وعزَّ عليه أن يفرَّ أمامه كما فرَّت فلولُ الطرواديين والهلع يملأ قلوبهم ...

وقارئ كتاب «هيلين طروادة» سيحظى بزبدة ما في إلياذة هوميروس من أحداث وأقوال ومطاحنات وبطولات ... إنني أطمئنه من هذه الناحية وأكثر ... وأريده أن يعلم تمام العلم أنني أهدف بهذا الكتاب الذي بين يديه ألا أجعل قراءة الإلياذة والإلمام بأحداثها

مقصورة على الشباب الكبير، بل أريد أن أشجع الشباب الصغير والنشء اليافع، بأن أتيح له فرصة ذهبيَّة لقراءة هذه القصَّة الخالدة قراءة ممتعة، لا تُبعده عن النص الأصليِّ من حيث الجوهر والحبكة الفنيَّة، وفي الوقت نفسه تعوِّده على أسماء أبطال هذه القصَّة سواء أكانوا أغارقة أم طرواديين؛ نظرًا لما لهؤلاء الأبطال اللامعين من خلودٍ ليس بعده خلود في دنيا الأساطير الإغريقيَّة القديمة وآدابها الرائعة ... الأمر الذي لا سبيل لأي مثقفٍ أن يغضَّ الطرْفَ عنه ...

تتلو محاولتي هذه محاولة مشابهة مع «أوديسة هوميروس»، إذ سأنشرها قريبًا تحت اسم «مغامرات أوديسيوس» ... والذي أرجوه صادقًا هو أن تحظى هاتان المحاولتان بالنجاح والتوفيق وأن تلقيا من القرَّاء الأعزَّاء التشجيع والإقبال ... والله وليُّ التوفيق.

أمين سلامة

جاردن سيتي في ٦/٦/١٩٥٦م

الباب الأول

أسباب حصار طروادة

استلقى باريس Paris ابن الملك بريام Priam على الأرض المعشوشبة في أعماق الغابة المجاورة لجبل إيدا Mount Ida تُحيط به أشجارها المتشابكة الأغصان، وقد استرخى تحت تأثير النسيم العليل الذي كان يُداعب شعره الذهبي، وحفيف أوراق الأشجار، وكان يحرس عن كثب قطعان أبيه النائمة في دجى الليل البهيم …

وبينما هو على تلك الحال إذ رأى فجأةً ضوءًا ساطعًا يخترق لألاؤه الغابة الكثيفة، ويمرق وسط الأشجار الملتفة بعضها على بعض، فخُيِّل إليه أن الشمس الذهبيَّة والقمر الفضيَّ قد أشرقا معًا في آنٍ واحدٍ فاختلط سناؤهما ونثر البياض بين الأشجار …

حدث بعد ذلك ما يدعو إلى العجب ويُثير الدَّهشة … فقد أبصر باريس، وسط ذلك اللألاء الساطع، ثلاث رباتٍ واقفاتٍ تجاهه، لم تُشرق الشمس على أجمل منهن وجهًا، ولا أملد عودًا، ولا أعظم فتنة وجاذبية … ولم تكن هؤلاء الربات الثلاث، غير صاحبة الجلالة هيرا Hera، وأثينا ربة الحكمة، وأفروديت الفائقة الجمال …

بقي باريس فترة من الوقت، لا يعرف مداها، طالت أم قصُرت، حائرًا مبهوتًا مشدوهًا، لا يحير جوابًا، ولا يبدي حراكًا … حتى قطع عليه غشيته صوت هيرا الناعم، ينساب في نغمات عذبة حلوة، وهي تقول:

«أي باريس! يا أجمل من وُلد من البشر، لقد حضرنا إليك نحتكم … خبِّرنا بربك … من منَّا تفوق زميلتيها جمالًا وفتنة؟ … خُذ هذه التفاحة، وبعد أن تُمعن النظرَ فينا وتصل إلى قرار، أعطها لمن تحكم لها بالتفوق في الجمال والفتنة على سائر الربَّات والبشر» …

ما كادت هيرا الفاتنة تنتهي من قولها، حتى وضعت في يد باريس تفاحة من العسجد الخالص، ثم استطردت تقول:

«لو أنك يا باريس، أعطيت جائزة الحب هذه، لي أنا هيرا، ملكة سائر الربَّات، وزوجة زوس Zous الجبار، ملك الآلهة في عليين، لكافأتك بدوري مكافأة منقطعة النظير، ولمنحتك من القوة والسلطان ما لا يقف أمامهما شُمُّ الجبال، فتخر لك الجبابرة سُجدًا، ويخشى بطشَك أعظمُ الأبطال والفرسان ... ولجعلتك ملكًا على تلك البقاع المترامية الأطراف، التي ينبلج منها الفجر بخنجره الفضي؛ بل وملكًا على هذه البلاد التي تغرب فيها الشمس الحمراء ... فينادي بك سيدًا وملكًا، مئات الشعوب من مختلف الأجناس، وتُغمر مخازنك بالهدايا النفيسة من الجواهر النادرة والثمار اليانعة.»

هيرا.

قالت هيرا ذلك القول ثم لزمت الصمت التام ... وما إن أتمَّت حديثها حتى انساب صوت أثينا في رقة ما بعدها رقة، وصفاء دونه صفاء البلور الثمين، كأنه شعاع فضي أرسله القمر من لدنه، فاخترق ذلك السكون، وقضى على هدوء الليل الرهيب ... فقالت:

«حبَّذا لو أعطيتني الجائزة يا باريس، فأُعطيك حكمة الآلهة الخالدين، وأجعل كل شيء في هذه الدنيا طوع أمرك ورهن بنانِك، تُصدر اللفظ فيطيع الملايين، وترفع إصبعًا فتلبي الشعوب أجمعين ... لأنني سأكون لك نعم الصديق المعين، والمخلص الأمين.»

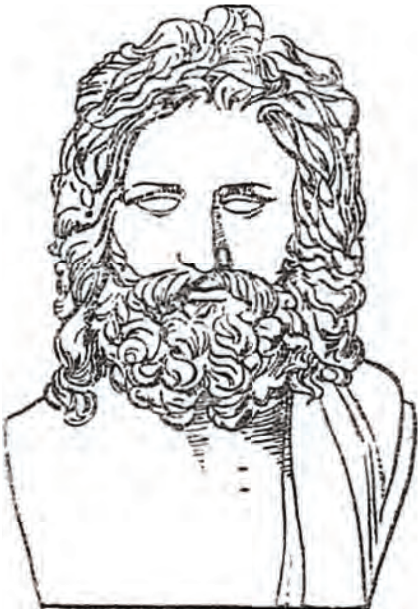

زوس.

انتظرت أفروديت الحسناء حتى انتهت أثينا من حديثها، فتقدمت في حُلَّة من الضوء الورديِّ، كأنها أشعة الشمس تخترق مطلع الفجر في فصل الربيع، ثم قالت:

«أي باريس! الفاتن الجميل، يا من تتطلع إليك الغِيدُ الحسانُ، ويرقص لرؤيتك قلبُ كل إنسان ... ما هو السلطان؟ بل وما هي الحكمة؟ وماذا يجديان المرء في هذه الحياة؟

ما كانت القوة أبدًا ولا الحكمة مصدرًا لنعمة أو مسرَّة، وما كانا سببًا لسعادة أو هناء، بل على العكس ما كانا دائمًا غير مبعث للشقاء والبلاء، والهموم والأحزان، والضغينة والأحقاد، أما أنا يا باريس، فسأُعطيك ما هو خيرٌ وأبقى، أعظم ما يتمناه المرء ويصبو إليه الإنسان، سأُعطيك ما أعتقد أنه غاية أمل الشاب في هذه الحياة، أُعطيك ما يجلب لك النعيم الدائم والهناء المقيم، أُعطيك ما يجعل حياتك حديقة غناء دانية القطوف ... سأُعطيك الحب ... ذلك الحب الرقيق، ذا الحلاوة الأبديَّة، واللذة السرمديَّة ... وسأجعل لك زوجةً تَفنَّنَ الصانعُ الماهرُ في تشكيلها؛ حتى بدت غادة فينانة فائقة الحسن، كأنها فلقة القمر، كلها فتنة وإغراء، وجاذبية ورواء. فارعة الطول كغصن البان، تنثني في مشيتها كما لو كانت عظامها من الخيزران، نحيلة الخصر دقيقة الأطراف ... جبينها ناصع كالصراحة، ونظراتها باترة كالعزيمة، وضحكتها مدوِّية كالحريَّة، ولمعة تفكيرها العبقري تجثم في عمق عينيها كما يجثم سر الحياة الكبرى في مقدس بدنها الفضي الجميل ... ذات عينينِ نجلاوينِ وفمٍ كينبوع ماء حيٍّ يتلهف على أن يعب منه كل ظمآن ... وأسنان بيض كياسمين منضَّد. صقيلة لَّماعة كأندر الدُّرر وأغلى العاج ... وعنق أتلع مستدير يشبه برجًا من اللُّجين الخالص. وخدود هي آنية من فضة قد انبثق منها ورد متفتح، امرأة في روحها عذوبة، وفي نفسها رِقةٌ، وفي دمها دفءٌ، وفي عيونها سحرٌ.»

أنصت باريس إلى حديث أفروديت، وكله إصغاء، فكان لكلماتها العذبة موقع السحر في نفس الشاب الجميل الذي أذهله جمالها الفتَّاك، وأسباه عودُها المياس، وأذهلته هالةُ جبينها الوضاء، وخدرته الفتنة المنبعثة من عينيها الدعجاوين ... فملكت عليه لُبَّه وفؤادَه، واستولت على جوارحِه ومشاعرِه ... فإذا به يخطو نحوها مسلوب الإرادة، فيقدم إليها التفاحة الذهبيَّة، بلا وعيٍ ولا شعورٍ.

هكذا جلب باريس بن بريام، على نفسه غضب الآلهة؛ فتألَّبوا ضده ... ولقد بلغ الغضب بهيرا وأثينا مبلغًا عظيمًا، حتى أقسمتا أنْ لتنتقمنَّ من باريس أفظع انتقام، ولتنكلنَّ بشعبه أشنع تنكيل.

يا ليت الأمر وقف عند هذا الحد، ويا ليت الربتين اكتفتا بما أقسمتا. ولكنهما أخذتا الأيمان المغلظة من جميع الآلهة أن يساعدوهما على الإمعان في الانتقام من باريس المتهوِّر المتسرِّع، الذي — بعدم بصيرته — جلب على نفسه الشقاء حين كان يرجو النعيم، والبلاء حين كان يرجو السعادة والهناء.

أصبح الصباح نديًّا، وملأت الشمس الكون تبرًا منثورًا، فأعدَّ باريسُ عُدَّته للإبحار، فركب سفينة مكينة، ونأى عن بلاده وسط اللجج العاتية، والأمواج الصاخبة، والرياح المزمجرة، تقوده أفروديت، حتى وصلت بسفينته إلى إسبرطة Sparta، تلك البلاد التي يتبوأ عرشَها الملكُ مينيلاوس Menelaus.

أثينا.

وكان مينيلاوس ملكًا شجاعًا مقدامًا، وفارسًا جريئًا، دوَّخ الممالك وفتح البلدان. وعلاوة على ذلك، كان أيضًا ملكًا سعيدًا هنيَّ الفؤادِ مطمئنَّ النفس، يعيش في مملكته هادئ البال مع زوجته الفاتنة، وشريكة عرشه الحسناء هيلين، أجمل نساء الدنيا قاطبة،

وأعظمهن إغراءً وجاذبيةً ... وكانت تنعم بحب زوجها وقد رزقت منه فتاة في نضارة الشباب حلوة القسمات، بهية المحيا، اسمها هيرميوني Hermione.

وصل باريس إلى إسبرطة بعينيه الزرقاوين في زرقة مياه البحر، وبشعره العسجديِّ المتلألئِ كأنه جدائل من الذهب تتدلى على ثوبة القرمزي، فاستقبله الملك مينيلاوس أحسن استقبال، ورحب به أعظم ترحيب؛ إذ قد علم أنه بطل جسور وفارس مغوار، ورأى أن جماله يفوق جمال البشر أجمعين ...

ما إن وقع بصر باريس على وجه هيلين، حتى أدرك من فوره أنه أمام جمالٍ فذٍّ لا مثيلَ له ... من ذلك اللون الذي يندر أن يوجد له نظير في جميع أرجاء العالم كله ... فآمن في قرارة نفسه أنه لا توجد على وجه البسيطة بأسرها امرأة واحدة قد بلغ جمالُها نصف ما حوبيت به هيلين زوجة مينيلاوس من جمالٍ رائعٍ وفتنةٍ أخاذة.

قامت أفروديت بدورها خير قيام، فأوقعت هيلين تحت وطأة سحرها الفتاك ... فإذا بقلب هيلين يمتلئ بغضًا وكراهية لزوجها الذي أحبته وأحبها، وأنجبت منه هيرميوني الحسناء. وإذا بها تنسى ابنتها العزيزة، وتنسى بيتها وما هي فيه من سعادة وهناءة ... وإذا بحبٍّ جديدٍ طافحٍ، يتسلل إلى قلبها فيعصره عصرًا، ويفتك بفؤادها، فتنقاد طيعة لكلمات باريس المعسولة، وغزله المغري، وحثه إياها بالهروب معه وقبول الزواج منه ...

نسيت هيلين رسالتها السامية، ونسيت زوجها الملك العظيم الذي كان سبب سعادتها ... نسيت ابنتها وقصرها وبلادها ... واستسلمت لباريس في ضعفٍ لم يسبق لها أن أحست بمثله، ورحَّبت راضية بفكرة الذهاب معه؛ لترتمي في أحضانه وتصبح له وحده، فترشف كأس الحب السعيد مترعة بين ذراعيه، بعيدة عن عيون العواذل وعن رقابة زوجها ...

وفي إحدى الليالي، عندما نشر زنجي الظلام أجنحته على الكون تسلَّلت هيلين من قصرها، وهُرعت تسعى نحو الشاطئ حيث كان باريس في انتظارها، فركبت معه سفينته الحمراء، التي انبرت تمخر عباب اليمِّ بأقصى سرعتها، وما زال بحَّارتها يَجِدُّون في نشر الأشرعة مقابل الريح حتى وصلوا إلى طروادة حيث يشمخ جبل إيدا الراسخ بذؤاباته الثلجيَّة وسط الأحراش ...

ما هي إلا عشية وضحاها حتى اكتشف مينيلاوس هروبَ زوجته هيلين مع ضيفه الخائن باريس، فغضب غضبًا شديدًا، وصار يذرع أرض قصره جيئةً وذهابًا، ثم ارتمى على سريره خائر القوى منهار الأعصاب، وقد بخعه الحزن، واستولى على جوانحه وسرى بين أحنائه. فاستسلم لتفكير عميق كاد يقضي عليه. كيف لا، وكان يُحب هيلين حبًّا يوشك

هيلين وباريس.

أن يكون عبادة، إذ كانت له بمثابة القلب من جسده ... وظلَّ على هذه الحال فترة طويلة، وأخيرًا هب من غشيته، وقرر أن يلجأ إلى أخيه الأكبر أجاممنون سيد الإغريق عامة، ويقص على مسامعه تفاصيل محنته الكبرى التي أقضت مضجعه، ونفت النومَ عن جفنيه ...

استشاط أجاممنون غضبًا، وأرغى وأزبد، وأقسم أنْ لينتقمنَّ لشرف أخيه المكلوم انتقامًا يتحدث بذكره الرُّكبان، ويروي فظائعه الغادي والرائح ... فأمر بتعبئة الجيوش في سائر بلاد الأغارقة، وإذا بجحافل الإغريق تحتشد في عداد الحصى وحبَّات الرمال، آتية من كل حدبٍ وصوبٍ، حتى اجتمع لدى أجاممنون مائة ألف مقاتل من خيرة الأبطال المغاورة والفرسان الصناديد ... ولم يمضِ طويلُ وقتٍ حتى انتظمت آلاف السفن في صفوف طويلة

وسط المياه، ثم صدرت إليها الأوامر بالتحرك، فأعملت المجاذيف والأشرعة حتى عجَّ البحرُ بالزَّبَد يرتفع مع الأمواج، وشقَّت السفن العديدة طريقها نحو طروادة ...

حقًّا، ما أكثر الأبطال الذين لبوا النداء فأبحروا من بلاد الإغريق ليعاقبوا باريس وأهله، وليعيدوا هيلين الفاتنة إلى قلب وطنها وعُقر دارها ...

وحقًّا، ما أقل الذين عادوا إلى وطنهم من تلك الرحلة الشاقة التي كانت حديث الخاصة والعامة ... لقد تسبب جمالُ هيلين الفتاك وأنوثتها الفذَّة، في اندلاع حرب شعواء دام أوارها عشر سنوات، تكبَّد فيها رجال بلاد الإغريق وشعب طروادة ألوانًا من العذاب، وقاست كل أسرة من الأحزان ما يعجِز عن وصفه اللسان. فسالت على أرض طروادة بحار من الدماء الزكيَّة، تقرحت من البكاء عليها عيون آلاف من الأمهات المنكوبات ...

ولم يمض طويل وقت حتى انتظمت آلاف السفن وشقت طريقها نحو طروادة.

الباب الثاني

كيف اصطدم أشيل مع أجاممنون

وصل الأغارقة إلى طروادة، فأقاموا معسكراتهم، وضربوا فساطيطهم بالقرب من أسوارها الشامخة الحصينة، وأحاطوا بها من كل جانب إحاطة السوار بالِمعصم ... وظلَّ حصارهم لها قائمًا يومًا بعد يوم، وليلةً إثر ليلة ...

كانت الحرب سجالًا بين الأغارقة والطرواديين، ينتصر الإغريق اليوم فيهزمون غدًا ... ويكون النصر في المعركة من نصيب الطرواديين يومًا ليكون في اليوم التالي من نصيب الأغارقة ...

هكذا دامت الحرب بين الفريقين تسع سنوات متواليات ... حتى كان ذات يومٍ ذهب فيلقٌ من جيش الإغريق إلى مدينة خروسي Chryse وضربوا الحصار حولها، فدارت بينهم وبين الطرواديين معاركُ دامية عادوا بعدها إلى معسكرهم مثقلين بالغنائم الثمينة، ويجرُّون وراءهم كثيرًا من الأسرى ...

وكان من بين الأسرى فتاة فارعة الطول ممشوقة القوام، غرَّاء هيفاء، فريدة المثال، تتمايل في رقةٍ وتيهٍ، وتتبختر في مشيتها عُجبًا واختيالًا؛ لأنها كانت تحسُّ بجمالها الفذِّ، وفتنتها الخارقة، وحديثها الذي يخلب الأفئدة كأنه السحر، أو دونه السحر ... تلك الغادة الحسناء، هي خريسايس Chryseis ابنة الكاهن العجوز المقيم بمعبد الإله أبولو ...

رأى أجاممنون هذه الفتاة، فبهره جمالها، وملكت عليه قلبه وتفكيره، فاختارها جزءًا من نصيبه في الغنائم لتكون أَمَةً له، وعبدةً ترضخ لرغباته ...

بيد أن الكاهن العجوز لم يكن لتُسلب منه ابنته بتلك السهولة، وكان يُحبها حبًّا جمًّا ... فهجر خروسي وقدم إلى معسكر الأغارقة خارج أسوار طروادة، يبحث عن ابنته ومهجة قلبه، حاملًا معه فدية عظيمة علَّه يستطيع أن يشتريَ بها حرية فلذة كبده خريسايس ... ولم يكتفِ الكاهن المسن بذلك، بل حمل في يديه صولجانًا من الذهب النضار، مكسوًّا

بإكليل الغار الذي يلبسه أبولو ... لكي يُثبت أن الرب الذي يخدمه ويعمل كاهنًا عنده، يؤيده في مسعاه، ويعضده في طلب تلك المنة من أجاممنون سيد جميع الأغارقة وإمامهم.

ذهب خريسيس Chryses إلى أجاممنون، والدموع تنهمر غزيرة من مآقيه، وتوسَّل إليه قائلًا: «أستحلفك بربك يا سيدي، خذ هذه الفدية وأطلق سراح ابنتي التي أعزها، ولا أستطيع صبرًا على فِراقها. ولسوف تحقق لك الآلهة رغبتك في تدمير مدينة طروادة، والفوز على شعبها، ثم العودة سالمًا آمنًا إلى وطنك العزيز.»

أنصت الأغارقة بآذانٍ مرهفةٍ إلى توسلات الكاهن العجوز، واغتبطوا من شدة الفرح، فوافقوا على عودة خريسايس إلى وطنها مع أبيها، وعلى تقسيم الفدية النفيسة فيما بينهم. بيد أن أجاممنون امتلأ غضبًا، ولم يأبه لموافقة مواطنيه وشعبه، بل نحَّى الكاهن المسن عن طريقه بقوة، وردَّه عنه خائبًا مدحورًا، دون أن يُجيبه إلى طِلبته أو يلبي رغبته، وصاح فيه قائلًا: «حذارِ أيها العجوز أن أراك هنا تحوم قريبًا من السفن، وحذارِ أن تحدثك نفسك بالبحث عن ابنتك أو التفكير في اصطحابها معك، وإلا فلن يجديك هذا الصولجان الذهبي فتيلًا، ولن يفيدك هذا الإكليل الذي للرب إلهك ... إن ابنتك ستبقى في خدمتي حتى يشيب فوداها ويتقوس ظهرها، ولن تعود أبدًا إلى بلادك مهما حاولت، ومهما توسلت، ومهما استرحمت، فإليك عني أيها الشيخ!»

ابتعد خريسيس الكاهن من أمام أجاممنون، مكسور النفس محزون الفؤاد، لا يدري أهو قائم على الأرض أم مستلقٍ على سطحها ... أيُصدق أذنيه؟ كلا! وألف مرة كلا! إن الدنيا لا تزال بخير، ولا يوجد فيها مَن غلظ كبده إلى هذا الحدِّ. وبعد أن أفاق قليلًا، واسترجع ما حدث في مخيلته، أخذ يسير بحذاء الشاطئ، وهو ينظر إلى الأمواج المتلاطمة، في صمتٍ دونه صمت القبور.

ظلَّ خريسيس يسير محاذيًا ساحل البحر حتى أنهكه التعب، ولما بلغ بقعة منعزلة، سجد على ركبتيه، وأخذ يُصلي للرب أبولو الذي يرعاه ... قائلًا: «أيها الإله المبجل، أيْ رب القوس الفضية، فلتصغين إليَّ ... لو أن المعبد الذي شيدته من أجلك قد أعجبك وراق ناظرك، ولو أن ذبائح الثيران والماعز التي نحرتها هناك في داخله قد حظيت بقبولك ... إذن فلتسمعنَّ دعائي! لقد أهانوا كاهنك واحتقروا إكليلك وصولجانك، بل واحتقروا اسمك ... لكم أشتهي أن تتولى سهامك الانتقام من الإغريق، وتنكل بجيوشهم وجحافلهم جزاء ما اقترفوا من إثمٍ في حقك وحقي، ولقاء دموعي الساخنة التي أذرفها كمدًا على ابنتي المغتصبة، وحزنًا على فلذة كبدي المسلوبة.»

وصلت صلوات خريسيس إلى أعلى ذؤابات أوليمبوس، فما إن سمعها أبولو حتى غلى مرجل غضبه، وملأ الغيظُ قلبَه، وسرى بين أحنائه سريان النارِ في الهشيم، يوم ريحٍ صرصرٍ عاتية ... فصمَّم على الانتقام من الأغارقة شرَّ انتقامٍ حتى يجعلهم عبرةً لأهل الأرض قاطبةً.

هبط الرب أبولو إلى حيث يعسكر أجاممنون وجيوشه، كما يهبط الليل إلى حيث تكمن المعمورة ... ثم جلس في مكان غيرِ بعيدٍ عن السفن، وأخذ قوسه الفضيَّة، وجذب وترها إلى الخلف؛ فانطلق منها سهمٌ في الفضاء، محدثًا جلبة مخيفة.

أشيل، أسرع عدَّاء في بلاد الإغريق كلها.

في بادئ الأمر صوَّب الربُّ سهامه إلى البغال والكلاب فكانت تخرُّ صريعة في الحال ... ثم لم يلبث أن حوَّل سهامه نحو البشر.

أخذت سهام أبولو تحصد الإغريق حصدًا، كأنما الحصاد يحش بمنجله عيدان القمح الناضج، والأبطال يتساقطون واحدًا تلو الآخر، حتى تكدست جثثهم على الساحل، وظلوا على هذه الحال تسعة أيامٍ كاملةٍ، والموت يعمل فيهم بشراهة، والدخان المتصاعد من أكوام الحطب الجنائزيَّة التي أشعلت فيها النيران لحرق الجثث، يتصاعد إلى عنان السماء فيحجب الضوءَ عن الأرض حتى يُخيل إلى المرء أن قد نشرت ملاءة سوداء قاتمة على الأرض، منعت عنها ضوء الشمس في رائعة النهار.

كان بين جيوش المحاربين الإغريق، بطلٌ صنديدٌ مغوارٌ هو ابن أحد أبطال البشر وإحدى الربَّات، وكان يدعى أشيل، وكان أسرع عداءٍ في بلاد الإغريق كلها.

رأى أشيل زملاءه يتردون الواحد عقب الآخر، فأيقن أن ذلك لغضب الآلهة، فقام في اليوم العاشر وجمع الإغريق حوله وخاطبهم بقوله:

«ترون أيها الزملاء الأعزاء، والمواطنون الأمجاد، كيف تجتاحنا الحربُ فتعركنا عرك الرحى بثفالها، وكيف ينتشر بيننا الطاعون شرًّا من الحرب ووبالًا ... لا شكَّ أن الوقت قد حان لنتحرى من أيِّ كاهنٍ أو عرافٍ عن سبب غضب أبولو علينا حتى أعمل فينا سهامه كما تشاهدون، وصبَّ علينا جامَ غضبه وانتقامه.»

عندئذٍ نهض خالكاس أحكم العرافين وقال: «لماذا تتساءل يا أشيل عن سبب هذا البلاء؟ وأنت أدرى الناس بما تتجاهله ... لقد حلَّت علينا هذه النكبات واجتاحتنا هذه الآلام من جراء الخطأ الذي ارتكبه أجاممنون مع خريسيس كاهن أبولو ... لن يكفَّ أبولو عن سفك دماء رجالنا بسهامه المبيدة التي تحمل معها الموت والفناء، إلا إذا أعدنا خريسايس ذات العينين الزرقاوين إلى أبيها، دون فديةٍ أو أي مقابلٍ من مالٍ أو متاعٍ ... وذبحنا مائة حيوانٍ في خروسي حيث يقوم معبد الرب، وقدمناها ذبيحةً وترضية للرب الغاضب.»

هكذا تكلم خالكاس ثم جلس ...

وعندئذٍ نهض أجاممنون العظيم من مقعده، وقد امتلأ قلبُه حقدًا وغضبًا لا مزيد عليهما، ثم صاح والشررُ يتطاير من عينيه قائلًا: «أي خالكاس! يا لك من منجمٍ عاثرٍ، وكذابٍ أَشِر. هكذا أنت دائمًا لا تتنبأ إلا بالشرور، فما سبق أن تنبأتَ لي إلا بما فيه الضررُ والأذى ... ولكن فلْتعلم يا منجِّم النحس أنني لن أقبلَ فديةً عن خريسايس، مهما

أشيل.

عظُمت قيمةُ تلك الفدية، ومهما كانت نفيسة؛ لأنني أحب الفتاة حبًّا جنونيًّا، لقد ملكتْ علي شغاف قلبي، واستولت على لبي وجناني، إنني أحبها أكثر مما أحب زوجتي الشرعيَّة ... بيد أنني لو اضْطُرِرت إلى ردِّها لأبيها خشية أن يهلكَ بنو وطني وعشيرتي، فلا أقل من أن أعوَّضَ عنها بجائزةٍ أخرى ... هل من الإنصاف أن أجرَّدَ أنا وحدي، دون سائرِ الأغارقة، من جائزتي التي هي نصيبي الوحيد من الغنائم؟ أيُّ عدالةٍ في هذا ... بل وأية حكمةٍ أو منطقٍ؟»

فردَّ عليه أشيل بقوله: «مهلًا مهلًا يا أجاممنون، يا أنبلَ النبلاءِ وأعظمَ العظماء، ما أجشعك! وما أفظع طمعك! وما أبشع شراهتك إلى كل مغنم! ... خفِفْ من غلوائك أيها

السيِّد المجيد ... ليس لدينا خزانة عامة مليئة بالأموال والكنوز، حتى نستطيع أن نعوضك عمَّا فقدت ... فجميع الغنائمِ التي استولينا عليها من المدن التي وقعت في قبضتنا، قد قسمناها فيما بيننا، فأخذ كل واحدٍ منا نصيبه منها وتصرف فيه ... هذا شيء، ورد الفتاة إلى أبيها شيء آخر، فلا بُدَّ من أن تعود خريسايس إلى بلدها معززة مكرمة مهما كان الأمر ... ولك علينا إذا فتحنا مدينة جديدة، أن تأخذ من غنائمها ما يطيب لك، وما يعوضك عن خريسايس وأكثر، وكلنا بالإجماع موافقون على ذلك.»

أرغى أجاممنون وأزبد، وهدَّد وتوعَّد، وأجاب وعيناه تقدحان بالشرر: «أتظن يا أشيل أنك تستطيع أن تخدعني بما تقول؟ أتريد أن تسلبني جائزتي ولا تعوضني عنها شيئًا ... هذا خداعٌ سافرٌ، وظلمٌ ظاهرٌ، وإني أقسم بالله قسمًا لا حنث فيه، إن لم آخذ المكافأة التي تتناسب ومقامي، وتليق بعظمتي وسلطاني، لأسعينَّ إليها بنفسي وأنزعها ممن أريد، سواء أكانت جائزتك أو جائزة أوديسيوس، أو غنيمة رجل آخر ... ولسوف يحلُّ غضبي بمن يقف في طريقي، أو تخوله نفسه أن يحول بيني وبين ما أريد ...

أما حزني على فراق خريسايس، فسيظل ملازمني ما حييت ... والآن هيَّا ندفع بسفينة سوداء إلى عرض البحر ونضع فيها خريسايس الجميلة الخدَّين مع ذبيحةٍ من البهائم، حتى نوفيَ أبولو، الرمَّاح الداهية، حقَّه من النحائر.»

اغتاظ أشيل وثارت ثائرته عندما سمع ذلك الكلام، فنظر إلى أجاممنون بازدراء، وصاح فيه قائلًا: «يا لصفاقتك! ... ويا لنذالتك ودهائك! ... فمن أجلك ومن أجل شقيقك مينيلاوس، تركت وطني وعبرت البحار؛ لأحارب في بلاد طروادة ... من أجلك ومن أجل شقيقك، خضت هذه الحرب الشعواء التي لا ناقة لي فيها ولا جمل ... من أجلكما تكبدت المتاعبَ وتجشمت الأخطارَ، وجئت لأقاتل وأُقتل ... وإذا بك الآن يا وجه الكلب تُهددني باغتصاب غنيمتي التي نلتها بكدِّي، وبالقتالِ المريرِ ... إنني سأعود أدراجي إلى وطني، فلا أستطيع أن أملك صوابي حتى أُقاتل من أجل شخصٍ طامعٍ في الغنائم والثرواتِ، ولا يعنيه أن أطعن في شرفي وكرامتي!»

فأجاب أجاممنون على الفور: «لك أن تفرَّ إذن، إن راق لك ذلك ... إن عندي أبطالًا مثلك مستعدين لتقديم فروضِ الولاءِ لي ... ما أبغضك إلى نفسي يا أشيل. هكذا أنت دائمًا ... تُحب النزاعَ وتميل إلى الشجار والعراك ... ولكن اعلم جيِّدًا أنه لن يهمني أمرك ولا أمر غضبك. وإليك أقول الآن إنني سأتوجه من فوري إلى خيمتك لآخذ منها بريسايس Briseis أجمل أسيراتك، حتى تعلم جيدًا، أن أجاممنون الواقف أمامك، هو سيدك وحاكمك.»

ما إن سمع أشيل هذه الكلمات، حتى طار صوابُه وجُنَّ جنونُه، وغلت مراجل دمائه حتى فارت ... وإذا به يضع يده على مقبض سيفه؛ يريد أن يستلَّه ويهجم على أجاممنون، فيطيح برأسه عن جسده، لولا أن الربَّة أثينا أمسكت بيد أشيل وحالت بينه وبين تنفيذ رغبته ...

استدار أشيل فرأى الربَّة واقفة إلى جواره، فقال لها غاضبًا: «ماذا أتى بكِ إلى هنا؟ ولماذا تمنعينني من أن أُعطيَ هذا الوقح درسًا في الأدب؟ هل جئتِ لتشاهدي وقاحة أجاممنون؟ بلى، إنني أقول لك إن كبرياء أجاممنون ستكون سببًا في أن يفقد حياته.»

فقالت له أثينا في نغمٍ رقيقٍ: «ما جئت من أوليمبوس النائي إلا لأحدَّ من غضبك ... ستنهال عليك الجوائز الطيبة فيما بعد، أي أشيل! عليك الآن أن ترفع يدك عن سيفك وتُصغي إليَّ.»

عندئذٍ قال أشيل: «أيتها الربَّة الجليلة، على المرء أن يُصغيَ إليك وينفِّذَ أوامرك؛ لأن من يسمع كلام الآلهة الخالدين ويطيع أوامرهم، يَلقَ منهم أذنًا صاغية وعطفًا زائدًا ...»

لم يسع أشيل إزاء كلمات الربَّة أثينا إلا أن يعيد سيفه إلى غمده في أدب، بيد أنه إذ كان لا يزال في سورة غضبه، فقد انبرى إلى أجاممنون ثانية وخاطبه بقوله: «أنت يا من له وجه الكلب وقلب الغزال، إنك لم تقاتل مطلقًا كما يجب على الرجال أن يقاتلوا من أجل الغنائم! إن جل همك وما تصبو إليه هو أن تستوليَ على الغنيمة التي من أجلها عرَّض رجالك أرواحهم للخطر، وخاطروا بأعز ما يملكه الإنسان ... لا شكَّ أنهم مستضعفون في نظرك، وإلا لكان هذا الذي تفعله آخر أخطائك، ولكنني أقسم الآن بهذا الصولجان الذي في يدي، والذي كان شجرة في يوم من الأيام، ولكنها لن تنبت فيما بعد أي أوراق أو أغصان ... أقسم أنه كما أن هذا الصولجان لن يخضرَّ له عود بعد اليوم، كذلك لن تقوم للأغارقة قائمة بعد الآن، ولسوف يأتي ذلك اليوم الذي تحتاجون فيه إلى أشيل، عندما يتساقط الفرنسان في حومة الوغى زرافات وفرادى، أمام هكتور السفَّاك ... عندئذٍ ستمزق يا أجاممنون قلبك غضبًا وكمدًا، ولسوف تندم على ما فات وتعض بنان الندم، ولات ساعة مندم؛ لأنك لم تحترم أشجع محاربيك، وفضَّلت عليه أطماعك في الاستئثار بأطايب الغنائم ... فهنيئًا لك بما اخترت لنفسك، وبئس الاختيار.»

ولما انتهى أشيل من كلامه، قذفه إلى الأرض بصولجانه المرصع بالذهب، بينما جلس إلى جواره أجاممنون تغلي مراجله من شدة الغضب ويتقد غيظًا وحنقًا.

رأى نستور، ذلك المحارب المسن الذي بلغ من العمر مائة حِجَّة أو يزيد، فنهض وألقى خطابًا يهدئ به التوتر بين المتخاصمين سعيًا وراء الصلح والسلام. وكانت ألفاظه

رقيقة فعَّالة تأخذ بمجامع القلوب، تخرج من اللسان فتتغلغل في القلب وتسري في النفس ... ولكن لم يكن أجاممنون المتعجرف، ولا أشيل الثائر لكرامته، براغبَيْنِ في الصلح أو يريدان السلام ...

وقبل أن يُغادر أشيل المكان قال: «تستطيع يا أجاممنون، أن تأخذ أسيرتي بريسايس الحسناء ... لقد أعطانيها الإغريق كنصيبي من الغنائم، وكان يجب أن يكون الإغريق هم الذين يستردونها مني ثانية ... ولكن فلتعلم أنه في اللحظة التي تتجاسر فيها أن تضع يدك على أيِّ شيءٍ من ممتلكاتي، سيتدفق دمُك الأسود غزيرًا حول رمحي، ولسوف تلفظه الأرض وتأبى أن تلعقه الطيور ...»

ولما انتهى المجلس وانفضَّ المجتمعون، أتوا بخريسايس الجميلة وأنزلوها إلى سفينة سريعة، وأنزلوا معها مائة حيوان لتنحر ذبيحة للإله أبولو ... وكان في صحبة خريسايس البطل العظيم أوديسيوس وبعض من خيرة الأبطال. ثم أبحرت السفينة بمن فيها وما فيها تمخر عُباب اليم قاصدة خروسي؛ كي يعيدوا إلى خريسيس الكاهن العجوز، ابنته الفاتنة، وليقدموا للربِّ الغاضبِ ذبيحةً تليق بمقامه السامي، عسى أن يكفَّ عن إبادتهم بسهامه الفتَّاكة.

وبعد أن ابتعدت السفينة إلى عُرض البحر وغابت عن الأنظار، استدعى أجاممنون رسله وقال لهم: «اذهبوا الآن إلى خيمة أشيل، ذلك المحارب الذي تجاسر على شقِّ عصا الطاعةِ، وجيئوني بأمته الجذَّابة بريسايس.»

كانت الرسل تُحب أشيل حبًّا جمًّا، ولكنهم لم يجدوا بُدًّا من الإذعان لأمر أجاممنون، فساروا بطول الشاطئ إلى حيث ضرب أشيل فسطاطه، فوجدوه جالسًا بجانبه، فلما رآهم أدرك في الحال الغرض من مجيئهم، فخاطبهم بقوله: «مرحبًا بكم أيُّها الرفاق الأعزاء، والرسل الأجلاء، إنني أُقدِّر تمامًا موقفكم، وأعلم جيدًا ما تنطوي عليه نفوسكم وما تُكنه أفئدتكم، ولا ألومكم على إطاعتكم لأوامر الوغد أجاممنون، كما لا أعتبركم آثمين في نظري؛ لأن الآثم هو أجاممنون وحده، الذي بعث بكم لتسلبوني بريسايس الجميلة. خذوها كما أمركم، ولكني أرجوكم أن تكونوا شاهدين على ما أقول؛ لأنه في اليوم الذي يُصبح فيه أجاممنون في مسيس الحاجة إليَّ لإنقاذ جيشه من الهلاك، لن يتلقى مني أيَّة مساعدة أو معونة جزاء ما اقترفت يداه ...»

سيقت بريسايس رغم أنفها كما تُساق السائمة، وظلَّ أشيل يرقبها وهي تنأى عنه شيئًا فشيئًا، ويشيعها بنظراته المملوءة كمدًا وأسًى، حتى اختفت عن بصره.

جلس أشيل بعد ذلك منفردًا على شاطئ البحر السنجابي، ثم طفق يبكي كالطفل بدموع حارة منهمرة، وقلبه الكسير يكاد ينفجر من شدة الكمد.

بقي أشيل مدة على هذه الحال، والحزن يسري بين جوانحه فيعصره عصرًا، ويُفتت كبده، وأخيرًا اتجهت عيونُه عبرَ البحر الواسع، وبنظرة كلها لوعة واشتياق، رفع يديه نحو السماء متضرعًا يستغيث بأمه ثيتيس الفضيَّة القدمين، ابنة ملك البحر؛ لتلبي نداءه وتحضر إلى معونته.

سمعت ثيتيس تضرعات ابنها، وحزَّ في قلبها ما يلاقيه من الآلام المبرحة، والأحزان الممضَّة، فاندفعت من بين أعماق أمواج البحر الخضراء، كأنها سحابة من الضباب، حتى وصلت إلى حيث يجلس ابنها الحزين، فاستقرت بجانبه.

ربتت ثيتيس على يدي ابنها أشيل بلطفٍ ولينٍ، وتحدثت إليه بحديثٍ رقيقٍ قائلةً: «لِمَ تحزن يا بنيَّ؟ وماذا يبكيك؟ إن قلبي ليتقطع حزنًا على حالتك وما أنت فيه من آلام، لابُدَّ أن الأمرَ جِد خطير حتى طلبتني في ذلك الوقت ... أَفِضْ إليَّ بمكنون قلبك، وما تقاسيه من هموم وأحزان، ولسوف تجدني نعم الأم الرءوم التي تبذل النفْس والنفيس في سبيل مساعدتك وإعادتك إلى حال الطمأنينة والهدوء، وتدخل السرور والمرح ثانية إلى قلبك ... هيَّا أخبرني ولا تُخف عني شيئًا.»

قصَّ أشيل على مسامع أمه المقدسة قصة الإهانة البالغة التي لحقته من أجاممنون، وما دار بينهما من حديث، وكيف اغتصب غنيمته الفاتنة التي تمزَّق قلبُه لفراقها ... وكيف انتزعها منه انتزاعًا، وتركه نهبًا للأسى والآلام.

عندما سمعت ثيتيس قصة ابنها وفلذة كبدها، انخرطت في البكاء معه من شدة الحنقِ والغمِّ ... ثم قالت له: «قصيرة هي حياتك يا بني! ليتني لم أنجبك، وليتك لم تأتِ إلى هذه الدنيا، فذلك خير من أن يملأك الهمُّ والحزنُ هكذا.»

قبَّلت ثيتيس ابنها، ثم اختفت وسط اللجج كما أقبلت، وعندما التمع الفجر ومزَّق ستارَ الظلام، خرجت من البحر وصعدت السماء إلى أوليمبوس ...

هناك قالت ثيتيس لملك الأرباب: «أبي زوس، لو كنتُ قدمت لك معونتي بين الآلهة أو البشر، فلتحقق الآن أمنيتي! ... اخلع مجدًا على ابني الذي كُتب لحياته أن تكون قصيرةً على الأرض، ولتجعلن النصر حليف الطرواديين طوال إحجام أشيل عن حمل سيفه، لتكن مشيئتك أن يخلع الإغريق في آخر الأمر أكاليل المجد والفخار على ذلك الذي أنزل به أجاممنون بالغ إهانته.»

أحنى زوس رأسه علامةً على الرضا، ومنحها ما طلبت، فاندفعت كالطائر السابح في الجوِّ، هابطة من أليمبوس، واخترقت الأمواج الخضراء، عائدة إلى أبيها في مملكته تحت أعماق البحر.

الباب الثالث

مجلس الشورى

في تلك الليلة، نام الآلهة كما نام البشر، ملء جفونهم، واستغرقوا في سباتٍ عميقٍ ... بيد أن زوس وحده لم يغمض له جفن، ولم يقترب الكرى من عينيه، فبات وحده مسهدًا يُفكر في الوسيلة التي يستطيع بها أن يمجد أشيل ... وأخيرًا استقرَّ على رأي ... وهو أن يُرسل حلمًا خداعًا إلى أجاممنون، يكون فيه التنكيل به وبجيوشه، وهو يظن أنه الخير كل الخير.

وفي الحال استدعى زوس حلمًا؛ لأن الآلهة اعتادوا أن يبعثوا برسائلهم إلى البشر عن طريق الأحلام ... فلما مثل الحلم بين يديه ملبيًا نداءه، قال له زوس: «اذهب الآن أيُّها الحلمُ الشريرُ إلى حيث ينام أجاممنون في خيمته بالقرب من سفنه السريعة، وقل له كلمة سألقنك إيَّاها ... قل له، أن يأمر رجاله سريعًا بحمل السلاح والهجوم على طروادة؛ لأنه الآن سيستولي على تلك المدينة الحصينة، التي امتنعت عليه منذ حضر برجاله.»

لبَّى الحلم أوامر سيده، فأسرع إلى خيمة أجاممنون متخذًا صورة محارب عجوز كان قد بذل جهده لإصلاح ذات البيت بين أجاممنون وأشيل دون جدوى ... هبط الحلم إلى جوار المقاتل النائم وتحدث إليه قائلًا: «أتنام يا أجاممنون؟ أهذا وقت النوم أم وقت العمل؟ إنه لأمر لا يليق أبدًا بسيد مثل هذا الجيش اللجب أن ينام هكذا طول الليل، لقد جئتك من لدن زوس، أبي الآلهة والأبطال أجمعين، إن زوس يُرسل إليك هذه الرسالة: مرَّ محاربيك يا أجاممنون، أن يحملوا السلاح فورًا، ويقوموا بهجوم مفاجئ؛ لأنك الآن ستستولي على مدينة طروادة المحصنة.»

ما إن أتم الحلم حديثه إلى أجاممنون، وأفضى إليه بالرسالة التي كلَّفه بها زوس، حتى طار سريعًا يشقُّ طريقه كقطعة من الغمام صاعدًا وسط الهواء حتى وصل إلى جبل أوليمبوس ...

استيقظ أجاممنون من نوعه مرتاعًا ملتاعًا، وصوت الحلم الجميل لا يزال يطنُّ في أذنيه طنينًا حلوًا، طنينًا كله آمال؛ لأنه تأكد أن الظفَر رائده، والنصر حليفه. كيف لا وقد أرسل إليه زوس نفسه حلمًا، يخبره بنتيجة تلك الحرب التي ظلَّ أوارها مشتعلًا تسعةَ أعوامٍ دون خاتمةٍ حاسمة …

غادر أجاممنون فراشه مسرعًا، وتدثر بعباءته الجميلة، ولفَّ حولَه معطفه الكبير، وثبَّت في قدميه صندله، ثم وضع فوق كتفه سيفه الفضي ذا الغمد المزخرف بالعسجد المرصع بالدرر، يتدلى من حمائل قرمزية اللون، وحمل في يده صولجان بيته رمزًا لسيادته وعظمته. ثم انحدر نحو الشاطئ إلى حيث ترسو سفن الإغريق، وطلب من رؤساء جيوشه أن يجتمعوا على عجل، دون أن يتخلف منهم أحد، ويعقدوا مجلس الشورى في الحال … ثم روى على مسامع الرؤساء ما حدث بينه وبين الحلم الذي أرسله له زوس إبان نومهم، وما دار بينهما من حديث …

وأخبرهم أن رسالة زوس إليه كانت: «احمل السلاح، احمل السلاح؛ لأن النصرَ لك.»

عندئذٍ نهض المحارب العجوز الذي اتخذ الحلم صورته وقال: «أيُّها الرفاق والأصدقاء، لو أن شخصًا آخر هو الذي روى لنا هذا الحلم لحكمنا بأنه يهذي وأن حلمه زائف لا محالة، ولكن الحلم جاء لسيد بلادنا الأكبر، وحاكمنا الأجلِّ … إذن لا شكَّ في صِدقه ولا ريب في صِحته. فلنأمر رجالنا إذن أن يعدُّوا عدتهم، ويحملوا أسلحتهم؛ استعدادًا للهجوم الخاطف على الأعداء.»

وافق جميعُ الرؤساء على مشورته، وحذوا حذوه في توجيه النداء إلى رجالهم، وسرعان ما لبَّى الأغارقةُ نداءَ سادتهم … وكما يندفع النحل من خلاياه في الصخور الجوفاء متجهًا إلى الحقول حيث أزهار الربيع اليانعة، كذلك اندفع المحاربون الإغريق من سفنهم وأكواخهم القريبة من البحر … وكان صوت صراخهم وهم يتدفقون، يدوي في الفضاء عاليًا، فتهتزُّ الأرضُ لصداه … ولقد حاول تسعةُ رسلٍ أن يُهدئوا من روعهم ويبثوا الهدوء بين صفوفهم، ولكنهم استغرقوا وقتًا طويلًا حتى استطاعوا أن يحققوا بغيتهم، ويفرضوا حالة الصمت والسكون اللازمة، كي يسمعوا صوت أجاممنون سيدهم الأكبر …

عندئذٍ تكلَّم أجاممنون إلى جموع شعبه ومحاربيه قائلًا: «أيُّها الرفاق، لقد أساء زوس معاملتنا إذ وعدنا قبل أن نبحر ونجيء إلى هذا المكان أن النصر سيكون نصيبنا … ولكن ها قد مضت تسعُ سنواتٍ فسدت إبانها أخشابُ سفننا، وتآكلت حبالها … إن

زوجاتنا وأولادنا لا يزالون قابعين في دورنا ينتظرون عودتنا ... ومع ذلك فما نحن بأكثر اقترابًا إلى النصر، من اليوم الذي وصلنا فيه إلى هنا ... فهيَّا إذن ... ولنهرب جميعًا في السفن إلى وطننا العزيز، لأنه يبدو لي أن طروادة لن تكون من نصيبنا أبدًا.»

ما إن تكلم أجاممنون هكذا حتى أثارت كلماته هذه قلوب جميع الذين لم يسمعوا من قبل، القرار السري العظيم، الذي اتَّخذه مجلسُ الشورى.

وكما ترتفع وتنخفض أمواج البحر صاخبة عندما تعصف بها الرياح العاتية من الشرق والجنوب، كذلك كانت جحافل الإغريق تتدفق كاللجج المزمجرة ... وكما تهب الرياح الغربيَّة على حقول القمح فتميل جميعُ سنابله أمامها وتنحني، كذلك قد بلغ التأثيرُ بالمحاربين أشدَّه وغايته ...

كان المقاتلون الإغريق يُهرعون مسرعين إلى سفنهم، وصياحهم لا يكف يعلو إلى عنان السماء ... وكان مُثار النقع يتصاعد من أحذيتهم فينتشر في الجوِّ كأنه رتل من السحب الكثيفة المتراكمة، تحجب الضوء عن الأرض حتى ليخيل إلى الرائي أن الليل قد أرخى سدولَه، وبعث بجحافل الظلام في كل مكان.

سرعان ما أعدَّ الرجالُ سفنهم وجهزوها أحسن تجهيز استعدادًا للرحيل، وكان البِشر يملأ قلوبهم والغبطة تهزُّ أفئدتهم عندما يتصورون أنهم عما قريبٍ سيعودون إلى وطنهم العزيز عبر البحر المالح اللامع، وأنهم بعد مدةٍ قصيرة سيتمتعون برؤية زوجاتهم وأولادهم وذويهم.

ليت الإغريق عادوا إلى وطنهم كما أخبرهم أجاممنون ... ولكن الحظَّ لم يرغب لهم في ذلك ... إذ قابلت الربَّة هيرا أثينا وخاطبتها قائلة: «أحقًّا أننا سنسمح للإغريق أن يتقهقروا هكذا ويعودوا إلى وطنهم؟ إنه لعارٌ علينا أي عار أن نترك هيلين في طروادة ترتمي بين أحضان ذلك الشاب الغر باريس، بينما ينجو هذا الأخير من العقاب ...

هيَّا أسرعي إذن ... عجِّلي ... وبكلماتك الرقيقة المشجعة، التي لها تأثير السحر في القلوب، أوقفي الرجال من الفرار في سفنهم إلى وطنهم.»

هبطت أثينا ذات العيون البراقة من ذؤابات جبل أوليمبوس إلى حيث كانت سفن الإغريق على استعداد للإبحار إلى الوطن، وكان أوديسيوس الكثير الحيل، الراسخ القلب واقفًا إلى جوار سفينته تأهبًا إلى ركوبها عائدًا إلى بلاده.

وكمن يتلو أفكار الآخرين، ويعلم مكنون صدورهم وما ينوون عمله، هكذا تكلمت الربَّة الحسناء إلى أوديسيوس، وقد كانت له دائمًا نعم المرشد والمعين.

«أحقًّا يا أوديسيوس العظيم، أنكم ستقذفون بأنفسكم إلى سفنكم، وتولون الأدبار إلى دياركم وأوطانكم؟»

قالت الربَّة هذا ثم أردفت: «هل سيترك أوديسيوس الشجاع، والبطل المغوار، هيلين التي مات من أجلها كثير من الأغارقة، وسالت دماءٌ زكيَّةٌ خضبت هذه الأراضي ... فيتيه بذلك رجالُ طروادة فخرًا؟ أسرع إذن يا أوديسيوس، ولا تكبد الإغريق مشقة سحب السفن إلى عرض البحر ...»

ما إن سمع أوديسيوس صوت الربَّة أثينا، حتى ألقى بوشاحه بعيدًا، وأخذ يعدو لمقابلة أجاممنون ... فتسلم منه صولجان الرئاسة، وحمله في يده، وأنشأ يجري وهو يشقُّ طريقه وسط حشد السفن المتأهبة للسفر.

كلما التقى أوديسيوس برئيس من الرؤساء، كان يقول له بألفاظٍ رقيقةٍ وعباراتٍ أخاذة: «أيُّها السيدُ الكريمُ، لا يليق بك أن تكون جبانًا ... فلتبقَ في هذه البلاد مع رجالك لتقاتل حتى نكسب الموقعة الفاصلة كما وعدنا زوس، إنك لا تعرف ما يصبو إليه أجاممنون ... إنه يريد أن يبلوكم ليتأكد من صدق عزيمتكم ... هيَّا اكبح جماحَ رجالك وامنعهم من الفرار؛ لئلا تُثير غضب سيدك أجاممنون.»

أما إذا التقى أوديسيوس برجل من العامة يُهرع إلى سفينته فإنه كان يضربه بالصولجان ويقول له: «قِفْ يا سيد، واصغ إلى كلمات من يفوقونك إدراكًا ... فما أنت بمقاتل، ولكنك جبانٌ رِعْدِيدٌ ... لم يعطنا زوس العظيم إلا ملكًا وحدًا ... فاستمع إذن إلى مشيئة أجاممنون فإن مشيئته من مشيئة زوس!»

هكذا ساس أوديسيوس جميع الأغارقة، وأثناهم عن فكرة الفرار إلى الوطن، وعاد بهم ثانيةً من السفن إلى حيث كان يجلس أجاممنون.

وكانت جلبة عودتهم لا تقل عن صخب الأمواج العاتية، عندما تصطدم بالشاطئ، ثم تبعث أصداءها إلى الأفق البعيد، فيُسمع صوتها في جميع الأرجاء، وتتجاوبه أجواز الفضاء ...

ما إن جلس الأغارقة، رؤساء ومرءوسين، في حضرة أجاممنون، حتى لزموا جميعهم الصمت كأن على رءوسهم الطير، ما عدا ثيريستيس Theristes ذا السيقان المضمدة، والأكتاف المستديرة، والقدم العرجاء، والرأس القبيح المغطى ببثور الجذام ... وقد كان أقبح جميع المحاربين صورةً وأبشعهم منظرًا ...

لم يلزم ثيريستيس صمته، بل وقف ليصب جام غضبه وتعنيفه في آذان أجاممنون فقال: «ماذا ينقصك الآن يا أجاممنون؟ … لا ريبَ أن خيامك وفساطيطك زاخرة بالمغانم والأسلاب التي كنا نحضرها إليك كلما استولينا على مدينة … فأي مزيد تطلب؟ …

أيها الحمقى الأرقاء! أيها النسوة الضعاف، ما أنتم برجال أيها الإغريق، وإلا لرجعتم الآن فورًا إلى دياركم ومسقط رءوسكم، تاركين هذا الرجل هنا وحده في أرض طروادة؛ ليشبع نهمه بالأسلاب التي من أجلها لم يحارب قط … لقد ألحق الإهانة بأشيل الشجاع، ذلك البطل المغوار والفارس المُعْلَم، الذي يبذه قوة وجرأة، ويفضله مروءة وحسن إدراك.»

ما كاد ثيريستيس ينتهي من كلامه حتى هبَّ أوديسيوس واقفًا، وصاح فيه بعبوس قائلًا: «هدئ روعك أيها المواطن! هأنذا أقولها لك كلمة صريحة، وحذارِ أن أسمعك تهذي مرةً أخرى كما هذيت الآن … وإلا جردتك بنفسي من وشاحك وعباءتك، وأخرجتك من وسط الحشد المجتمع ههنا، وضربتك ضربًا يذوق الموت من ذاق طعمه، فترجع باكيًا إلى سفينتك، وعندئذٍ لا تلومن إلا نفسك، ولقد أعذر من أنذر، أسمعت؟

هكذا تكلم أوديسيوس، ثم رفع صولجانه، وهوى به على ظهر ثيريستيس وأكتافه … فانحنى الأخير وانهمرت الدموع غزيرة من عينيه، وتدفق الدمُ من ظهره … فجلس ثيريستيس وقد عقدت الدهشة لسانه، وأطار الألم لبَّه وصوابه، فمسح بيده دمعةً كبيرةً كانت قد انحدرت على خده.»

أثار هذا المنظر ضحكَ الآخرين وسخريتهم، وإن كانوا قد أسفوا لما حدث … ثم قالوا: «ما أكثر أعمال أوديسيوس الطيبة وما أجلَّها، غير أنه ما أتى عملًا طيبًا يستحق الثناء عليه كهذا الذي فعله الآن عندما أخرس لسان هذا الغر الثرثار.»

بعدئذٍ تكلم أديسيوس والصولجان ما زال في يده فقال: «حقًّا إنها لأمنية الأغارقة، أن يجعلوك يا أجاممنون العظيم، أبغض جميع الملوك … فها هم أولاء يبكون كالأطفال الصغار والنسوة الثكالى، يبتغون العودة إلى بلادهم … لقد مكثنا في هذا البلد تسع سنوات، ولا عجب أننا نتوق للعودة إلى الوطن … ولكنه العار كل العار، أن ننتظر طيلة هذه المدة، ثم نعود بخُفَّيْ حُنَين … تشجعوا أيها الرِّفاق، واصبروا قليلًا، فما من شكٍّ في أن طروادة ستكون من نصيبنا، فإنكم إن صبرتم على الأمر قليلًا، استمتعتم بالأرفه الألذ طويلًا. هل نسيتم يوم أن أقلعنا من وطننا ونحن في طريقنا إلى طروادة، وحدث ذلك الفأل العظيم الذي شاهدناه بعيون رءوسنا؟ فبينما كنا نقدم الذبائح للآلهة تحت إحدى أشجار الدلب الباسقة، حيث كانت المياه تتدفق صافية كالبلور، وإذا بثعبان ضخم، لون ظهره أحمر

قانٍ، ومنظره مرعبٌ مخيفٌ، إذا به يتسلل من أسفل المذبح منطلقًا صوب الشجرة … وكان في أعلى أغصان تلك الشجرة عش عصفور دوري، به ثمانية أفراخ زغب الحواصل، تحتضنها أمها تحت جناحيها المنبسطين … فانقضَّ عليها وأخذ يلتهمها فرخًا بعد فرخ، وهي تزقزق ولا تستطيع الصراخ، بينما كانت أمها المسكينة تحوم حول صغارها، ترفرف بجناحيها دون جدوى، فلم يأبه لها الثعبان بل استمر يزدرد الأفراخ حتى أتى عليها كلها، وأخيرًا انقضَّ على الأم فابتلعها هي أيضًا، بعد أن التفَّ حولها وضغط بعضلاته القويَّة على جسمها الضعيف فحطَّم عظامها … أمام بصركم، أتذكرون ذلك؟

بعد ذلك حدث العجب العجاب، فإن الربَّ الذي أرسل هذه العصفورة، أثبت لنا بما لا يقبل الجدل، أنها مرسلة من لدنه، فقد مسخ الثعبان في الحال صخرًا، فتحجر في مكانه لا يحرك ساكنًا.

بعدئذٍ أخبرنا كالخاس، منجِّمنا الأمين، ما انطوت عليه هذه المعجزة وذلك الفأل من معانٍ بالغةٍ فقال: إن الأفراخ التسعة التي التهمها الثعبانُ، بعدد السنوات التسع، ستقاتلون في بلاد طروادة تسع سنين، ولكن المدينة لن تسقط في أيديكم إلا في السنة العاشرة … إذن فلنبق هنا حتى نستوليَ على هذه المدينة العظيمة التي كابدنا في الحصول عليها تسع سنوات، قابلنا فيها أشد المحن هولًا، وأعظم البلاء فظاعة.»

فلما كفَّ أوديسيوس عن الكلام، هتف له الجميع، وصاحوا مقرِّظين حديثه بصوت مرتفع، حتى رددت السفن في المياه صدى ذلك الهتاف المُدَوِّي والتقريظ الطيب.

بعد أن هدأت جموعُ الأغارقة من هتافاتهم، نهض أجاممنون وخاطبهم بقوله: «انصرفوا كلكم الآن، واملئوا بطونكم بالطعام الشهي لكي تحاربوا بقوةٍ وعزيمة، وليشحذ كل منكم رُمحه ويفحص درعه، ويتأكد من أن الجياد قد أكلت جيدًا، والعربات قد أُعدت وجُهِّزت أحسن تجهيز، وإني أقسم لا أجد رجلًا فر من القتال أو اقترب من هذه السفن إلا ضربت عنقه، وجعلته بعد ذلك طعامًا للكلاب والطيور والكواسر.»

فلما انتهى أجاممنون من كلامه، كان صياح الإغريق كهدير الأمواج الشامخة وهي ترتطم بسلسلةٍ من الصخور، بينما تهب الرياح قويَّة مزمجرة.

تفرق الأغارقة هنا وهناك، يشعلون النيران، ويعدون طعام المساء، ويقدمون الذبائح للآلهة، طالبين النجاة من الموت في المعركة التالية، التي ستكون المعركة الفاصلة في تلك الحرب الضروس.

أما أجاممنون فقد قدَّم ذبيحته للربِّ زوس، وراح يصلي له قائلًا: «أي زوس العظيم، أي رب السحب الممطرة، والبروق الخاطفة، لا تدع الشمس تغيب، ولا الظلام يُخيم على المسكونة قبل أن أدمر قصور طروادة الشامخة، وأضرم النيران في حوائطها ...»

هكذا صلى أجاممنون، بنفس مطمئنة إلى النصر، بيد أن الربَّ زوس، لم يصغ إلى صلاته تلك ... وبعد ذلك حشد الإغريق جموعهم للقتال، وكانت أثينا ذات العيون البراقة، تسير وسط الصفوف تبث الشجاعة في قلب كل محارب، وتضاعف أملهم في النصر، فيزدادون قوةً وجرأة، ومضاء عزيمة في القتال.

كانت الأسلحة البُرُنْزيَّة تلمع في أشعة الشمس الذهبيَّة وهم يسيرون قُدُمًا إلى الأمام، فتُرى من مسافات بعيدة، كما ترى ألسنة النيران الحمراء وهي تتراقص في الهواء عندما تضطرم في غابة فسيحة الأرجاء مترامية الأطراف.

وكما يحتشد الذباب في فصل الربيع، حول دلاء الرعاة المملوءة باللبن، كذلك كانت جحافل الأغارقة محتشدة للقتال في عداد الحصى وأوراق الأشجار والأزهار، التي كانوا يطئونها بأقدامهم، في ذلك السهل المزهر بجانب شاطئ نهر سكاماندر.

الباب الرابع

القتال بين باريس ومينيلاوس

هبَّ رجالُ طروادة ليلاقوا جيش الأغارقة العرمرم، وأخذوا يَفِدون محدثين جلبة وضوضاء صاخبة، لا تقل عن جلبة أصوات أسراب الكراكي الطائرة صوب البحار النائية، قبل مقدم فصل الشتاء والأمطار الفجائيَّة …

كان الإغريقُ يسيرون في صمتٍ وسكون … والأكتافُ متراصةٌ متلاصقة، كالبنيان الشامخ يشدُّ بعضه بعضًا وقلوبهم مملوءةٌ بالشجاعة والجرأة.

وكما تهبط سُحُب الضباب من ذؤابات الجبال العالية، فلا يُمكن لأحد أن يرى ما أمامه إلى أبعد من مرمى حجر، كذلك كان الغبار يتصاعد في أكوامٍ من السحب، من شدة وطأة أقدام المحاربين العديدين، وهم يسيرون بنعالهم السميكة عبر الوادي الفسيح، فتحجب الرؤية وتستر الشمس.

التقى الجيشان بعد لَأْيٍ، ووقفا وجهًا لوجه … ثم خرج من وسط صفوف الطرواديين، باريس الذي يشبه الآلهة، والذي سلب من مينيلاوس زوجته الحسناء الفاتنة، فكان سببًا في اندلاع سعير تلك الحرب الطاحنة.

وكان يتدلَّى من كتفي باريس جلد نمر أرقط، وكان يحمل قوسًا معقوفة وسيفًا صارمًا … وكان معه أيضًا حربتان بطرفين من البرونز، يُلوِّح بها في الهواء متحديًا جميع رؤساء الجيش الإغريقي، لمنازلته واحدًا بعد واحد، في قتال مميت.

وكما يغتبط الأسد الجوعان، عندما يرى ظبيًا كبير القرنين، يقبل نحوه لقمة سائغة، وفريسة طيبة، كذلك كانت بهجة مينيلاوس وغبطته عندما شاهد باريس ذا الشعر الذهبي، والعيون الزرقاء، يخرج مختالًا بين الصفوف …

وفي الحال قفز مينيلاوس من فوق عربته إلى الأرض، وهو مُرتدٍ عُدَّته الحربيَّة.

فلما رأى باريس مضيفه الكريم، والذي جازاه باريس على كرمه وحسن صنيعه جزاء سنمار، أحسَّ كأن خنجرًا قد مزَّق قلبه وأحشاءه ...

وكأي رجل يسير في وادٍ جبليٍّ، يرى فجأةً أفعوانًا بشع المنظر ضخم الجثة، فيجفل منه وترتعد فرائصه ذُعرًا وخوفًا، كذلك كان باريس، يرتعد فرائصَ وأعضاءً عندما رأى مينيلاوس، وعاد أدراجه ليختفي وسط جموع رفاقه.

رأى هكتور ما فعله أخوه، فاحتقره أشدَّ احتقار، وقال له: «حقًّا إنك جميل الوجه، ولكن وا خجلاه ووا عاراه منك أيها الجبان الرعديد، إنني أعتقد اعتقادًا راسخًا، أن الأغارقة ذوي الشعور الطويلة، ليتخذون منَّا مجالًا للدعابة واللعب، إذ يرون قائدنا الجميل الوجه، المعتدل القوام، الفارع الطول، قد انفلق صدره عن قلبٍ لا يعرف الجرأة ولا الشجاعة ... ما هذا الجبن يا باريس؟ ولمَ هذا الخوف؟ ... لقد كنت جسورًا حينما خطفت زوجة ذلك الرجل، وجلبت علينا كل هذا البلاء العظيم ... سترى بعينيك أي صنف من الرجال، هذا الذي سلبتَه زوجته الحبيبة ... إن قيثارتك، وجدائل شعرك الذهبيَّة، ووجهك الجميل، وجميع المفاتن التي زودتك بها أفروديت، لن تجديك فتيلًا، يوم أن ترقد رقدتك الأخيرة في التراب! لا بُدَّ أننا نحن الطرواديين جبناء، وإلا لكنا رجمناك من قبل، حتى تموت جزاء ما أتيته من شرٍّ مقيمٍ وذنبٍ عظيم ...»

عندئذٍ أجاب باريس: «صدقت أيها الشجاع هكتور، ونطقت بالصواب، إنني أستحق كل كلمة تفوهت بها ... ولكن مع ذلك فلا تسخرنَّ من هدية أفروديت الذهبيَّة؛ لأن المرء لا يستطيع بمحض إرادته، أن يحظى بالحب والجمال اللذين تهبهما الربَّة لمن ترى وتختار ... والآن، أرجو أن تسمح لي بمنازلة مينيلاوس ... دع الطرواديين ورجال الإغريق يفترشون الأرض ويكفُّون عن القتال، بينما أنازل أنا مينيلاوس من أجل هيلين ... ولتكن هيلين لمن ينتصر منَّا على خصمه ... لتكن هي وكل ما تمتلك له ... وليقسم الآخرون يمين الصداقة فيما بينهم، فيرحل الأغارقة في سلامٍ واطمئنانٍ إلى بلادهم التي تركوها منذ أمدٍ بعيد، ويعيش الطرواديون آمنين هانئين في طروادة ...»

سمع هكتور كلام أخيه باريس، فسُر سرورًا بالغًا؛ لأنه رأى في ذلك الحديث، الحكمة بأجلى معانيها، والعدل والإنصاف واضحين ... فأمسك رمحه في يده وتقدم في وسط الجيوش يشق الصفوف، ويأمر رجاله الطرواديين بأن يكفوا عن القتال، ويرتاحوا من عناء الحرب الذي أنهك قواهم ونال من أجسامهم وأعصابهم مدة تربو على التسعة أعوام.

بيد أنه ما إن رأى الأغارقة هكتور يتحدث إلى رجاله، حتى أخذوا يقذفونه بالسهام والأحجار في غير رحمةٍ ولا هوادة ... وكان هكتور الشجاع يتلقى سهامهم بدرعه المتينة،

ويشير إليهم إشارة السلام ... ولكنهم لم يفهموا قصده، وكادوا يجندلونه، لولا أن أجاممنون رآه وأدرك ما يعنيه، فصاح في رجاله الأغارقة ونهرهم بقوله: «كُفُّوا ... كُفُّوا ... أيها الأغارقة ... إن هكتور البطل المغوار، والفارس المقدام، يريد أن يحدثكم فاسمعوا إلى ما سيقوله لكم.»

كفَّ رجال الإغريق عن القتال، كما فعل الطرواديون ... فوقف الجيشان في صمت مطبق يصغون إلى ما سيقوله هكتور ذو الخوذة البراقة ... ثم وقف هكتور في وسطهم وتلا عليهم كلمات شقيقه باريس.

فلما انتهى هكتور من حديثه، نهض مينيلاوس وخاطب الرجال قائلًا:«أي مواطني طروادة الشجعان، ويا رجال الإغريق الفرسان، لقد تحملتم محنًا كثيرة، ومتاعب جمَّة، ومات منكم آلاف، من أجلي، ومن جراء آثام باريس، ولكني أعتقد الآن أن خاتمة هذه الحرب الطويلة قد اقتربت، وستكتب لكم الراحة والسلام ... فلنتقاتل إذن، والموت والحظُّ هما اللذان سيحددان من الذي سيموت منا. فلنقدم الآن ذبيحة إلى زوس، ولندعُ بريام ملك طروادة إلى الحضور لِهَا هُنا حتى يحضر النزال، ويكون شاهدًا على ابنه؛ فإنني أخشى أن يكون في الأمر دسيسة، فلا آمن خبث ولديه باريس وهكتور، أما بريام، الرجل العجوز، فإنه شريفٌ نبيلٌ لن يخون الأمانة ولا يحنث في العهد.»

سرت موجة من الغبطة والفرح بين جموع الإغريق والطرواديين، فنزلوا جميعًا من عرباتهم وخلعوا عنهم أسلحتهم ووضعوها بجانبهم على الأرض، وافترشوا الغبراء ليريحوا أجسامهم.

بينما ذهب الرسل إلى بريام، يدعونه إلى الحضور كطلب مينيلاوس، وذهب آخرون يبحثون عن حُملان وكبش للذبيحة.

بينما كان هؤلاء يؤدون مهمتهم، استدعت الربَّة هيرا، رسولتها الخاصة إيريس Iris، وأرسلتها إلى طروادة في صورة أجمل بنات بريام.

ذهبت إيريس الجميلة إلى الساحة التي كانت تجلس فيها هيلين ... وهناك وجدت هيلين، أجمل نساء العالم طُرًّا، تُحرك ذراعيها البضتين بسرعة، إلى الخلف وإلى الأمام، تنسج نسيجًا كبيرًا من الصوف القرمزي المزدوج، وقد زينته بنقوش، عبارة عن صور لمعارك كثيرة بين الأغارقة ورجال طروادة.

هيلين، وقد اجتاح قلبها النائم ذكريات الماضي السعيد.

سلمت إيريس على هيلين وقالت لها: «سيدتي العزيزة، تعالي إلى هنا، وانظري أمرًا عجبًا ... لأن الذين كانوا يتقاتلون هنا منذ لحظة قتالًا مريرًا، يجلسون الآن في صمت وسلام ... لقد انتهت المعركة ... وها هم يتكئون فوق دروعهم، وها هي رماحهم الطويلة ملقاة على الأرض إلى جوارهم ... ولكن مينيلاوس وباريس سيتقاتلان الآن من أجلك، وستصبحين زوجة الظافر المنتصر.»

لما أتمت إيريس الفاتنة حديثها، اجتاحت قلب هيلين النائم، ذكريات الماضي السعيد، والأشواق الزائدة لرؤية وطنها وزوجها مينيلاوس، وأبيها وأمها، وابنتها الصغيرة هيرميوني الحسناء، التي تركتها طفلة وهربت مع باريس الخدَّاع.

انهمرت الدموعُ غزيرة من مآقي هيلين، وانحدرت على خديها الأتلعين كاللؤلؤ اللامع، ولكنها سرعان ما مسحت الدموع، وأخفت وجهها بخمار من الكتاب الرقيق، لا يكاد يستر شيئًا من وجهها الفاتن الجميل، ثم أسرعت إلى الخارج بصحبة أَمَتيها إلى حيث ينتظر الجيشان مشاهدة المعركة الفاصلة التي ستقرر مصير الحرب ومصير الرجال.

وكان يجلس عند الأبواب، بريام وبعض المحاربين الطاعنين في السن.

فلما اقتربت هيلين بردائها الأبيض الجميل تتهادى بجسمها اللدن وطلعتها البهيَّة وأنوثتها الجذَّابة، عجب الرجال المسنون لسحر جمالها، كما قال بعضهم:

لو أنها عرضتْ لِأَشْمَطَ راهبٍ　　　يَخشى الإلهَ صَرُورةٍ متعبِّدِ
لرنا لبهجتها وحلوِ حديثها　　　ولَخالَه رشدًا وإن لم يرشد

وقالوا: «لا عجب أن يتكبد الطرواديون والإغريق كل هذه الصعاب، ولا عجب أن يضحوا بأرواحهم، وتسيل دماؤهم غزيرة على أرض هذه البلاد، من أجل غادة حسناء في هذا الجمال الفتَّاك. ومع ذلك فخير لها أن تركب سفن الإغريق وتبحر بعيدًا عنا إلى غير رجعة، من أن تظل هنا لتجلب لنا المتاعب الآن، ولأولادنا فيما بعد.»

عندئذٍ خاطب بريام هيلين قائلًا: «بُنيتي العزيزة، تعالي إلى هنا واجلسي إلى جواري؛ كي تري الرجل الذي كان يومًا ما بعلك، ولتري أقاربك وأصدقاءك ... إنني لا أوجه إليك أيَّ لوم من جراء الآلام التي نتكبدها، ولكني ألوم الآلهة الذين اختاروك دون بقية النساء، لتكوني سببًا في سفك كل هذه الدماء.»

طفق بريام بعد ذلك يسأل هيلين، عن أسماء الأبطال المغاوير الذين وقفوا شاهرين رماحهم في صفوف الإغريق، فأجابته هيلين قائلة: «أي والد باريس العزيز، أي والدي المبجل، وسيدي الأجلَّ، ليتني مت قبل أن أغادر وطني، وابنتي الصغيرة، وجميع الذين أحببتهم ... ليت مَنِيَّتي وافتني قبل أن أعرف ابنك، ولم أتبعه إلى هذا المكان! فقد كانت معرفتي له طامَّة كبرى على الأغارقة والطرواديين على السواء ... وإذ كنتَ تريد معرفة أبطال الأغارقة، فهذا أجاممنون، الملك العظيم، سيد جميع الأغارقة وحاكمهم، إنه الرمَّاح القوي المراس، والفارس الصنديد الذي دوخ الممالك وتغلَّب على أقوى الشجعان ... ذاك هو المحارب الإغريقي الذي تسألني عن اسمه ... إنه شقيق الرجل الذي كان زوجي ... يا له من عار ... ويا لها من خيانة عظمى، وجريمة لا تغتفر، لقد تركت بعلي ورجل حياتي ... تركت زوجي الشرعي وجئت مع عشيق سبَّب لي ولعائلتي وجميع أهل وطني أفدح المصائب وأعتى الكوارث.»

تحرى بريام أيضًا، عن أوديسيوس، وعن محاربين كثيرين آخرين، من ذوي القامات الربعة الضخمة، والأكتاف العريضة، والعضلات القويَّة، والشجاعات النادرة، والقلوب الجريئة الجسورة ... وكانت هيلين تخبره بكل ما تعرف، ودموع الشوق تنحدر من مآقيها على خديها المورَّدين، كأنها قطرات الندى وقت الفجر على الورود الحمراء ...

وفجأةً التفتت هيلين إلى الجمع وقالت: «إنني لا أرى شقيقي كاستور Castor مروِّض الجياد، وبوليديوكيس Polydeuces الملاكم الماهر، فلربما لم يعبرا البحر إلى هنا.» لأن هيلين لم تكن تدري أن شقيقيها قد ماتا في وطنها الجميل.

أتى الرجال بالذبيحة وكانت سمينة، فذبحوها وقُدِّمتْ لزوس، وتبادل أجاممنون وبريام العهود ...

وبعد أن تمت مراسيم تقديم الذبيحة، وتبادل العهود، أسرع بريام ملك طروادة، فاعتلى عربته ونأى بها قائلًا في نفسه: «فلأعودن أدراجي إلى طروادة ذات الرياح؛ لأنني لا أستطيع احتمال مشاهدة القتال بين مينيلاوس وابني العزيز، ولكن زوس والآلهة وحدهم، هم الذين يعرفون أيهما سيسقط مغلوبًا على أمره.»

حدَّد هكتور وأوديسيوس مكانًا للقتال، ثم أخذ هكتور حصاتين، ووضعهما في خوذة برنزية، وصار يهزُّ الخوذة بما فيها وهو ينظر إلى الخلف ... فقفزت حصاة باريس إلى الخارج أولًا، وبذلك كان من حظه أن يقذف رمحه البرنزي أولًا ...

عندئذٍ تسلح باريس في كامل عدته الحربيَّة، فارتدى في ساقيه دروعًا جميلةَ الصنع، وثبتها في عقبيه بواسطة مشابك من الفضة الخالصة ... ووضع على كتفيه سيفه البرنزي المرصع بالفضة، ودرعه الكبيرة ... أما فوق رأسه فقد ارتدى خوذة تعلوها ريشة مقوسة من ذيل جواد، كما أمسك في يده رمحه العتيد مصقولًا مدبَّبًا ... وهكذا أيضًا تسلح مينيلاوس.

وقف المقاتلان وجهًا لوجه لحظةً من الزمان، وقلباهما يتقدان غيظًا وكراهية، وحقدًا وغضبًا، وكل منهما قد أطبق يده بشده على رمحه، يريد أن يفترس خصمه، لو أمكنه، بأسنانه وأظفاره ...

وما هي إلا بُرهة واحدة حتى قذف باريس رمحه بقوة عظيمة؛ فانطلق نحو مينيلاوس، فأصاب درعه، غير أن الدرع كانت متينة صلبة، لا ينفذ فيها الرمح مهما كانت قوة اندفاعه، فاستعصت على رمح باريس.

ولما رفع مينيلاوس يده ليقذف رمحه، نظر إلى أعلى، وصاح مناديًا زوس قائلًا: «أي زوس العظيم، أي أبا الآلهة والبشر أجمعين، يا من تطَّلِع على أعمال البشر وتعلم

أيهم المسيء وأيهم البريء، دعني أنتقم من الشخص الذي أخطأ في حقي هذا الخطأ الفاحش، يسِّر لي سبيل الانتقام كي يرهب كل شخص عقابك، فلا يذنب في حق من أحسن إليه وأكرم وفادته كضيفه المعزز المكرَّم.»

ثم قذف رمحه العتيَّ … فاخترق الدرع اللامعة، كما اخترق الصدريَّة النحاسيَّة البراقة، ومزق عباءة باريس عند فخذه … بيد أن باريس انحرف جانبًا، وهكذا نجا من الموت.

فلما رأى مينيلاوس أن طعنته النجلاء لم تُصِب من عدوه مقتلًا، استل سيفه الفضي المقبض، وهوى به على رأس باريس ليحطم خوذته، ولكن السيف تحطم إلى أربع قطع صغيرة، وسقط من يد مينيلاوس …

عندئذٍ اغتاظ مينيلاوس وكاد الحنق يقطع نياط قلبه، فصاح غاضبًا يخاطب الرب زوس: «أي زوس! … لا شكَّ أنك أقسى الآلهة طرًّا … لقد ذهب رمحي هباء، وتحطم سيفي دون جدوى … ومع ذلك فلا تزال أمامي فرصة للانتقام! …»

قال مينيلاوس هذا، ثم انقضَّ على باريس انقضاض الصاعقة، وأمسك به من ريشة خوذته، وصار يدور به ليدوِّخه، ثم جذبه نحو الجيش الإغريقي …

كاد حزام خوذة باريس، الموشى بالذهب، يخنق باريس ويكتم أنفاسه، وبذا كان له أن يموت أشنع ميتة، لولا أن أفروديت تداركت الأمر عندما بلغ السيل الزُّبَى، وجاوز الحِزام الطُّبْيَيْنِ، فقطعت الحزام الجلدي بسرعة، فانفلت باريس يهوي على الأرض بينما بقيت الخوذة في يد مينيلاوس.

قذف مينيلاوس بخوذة باريس إلى رفاقه، ثم قفز إلى الوراء وقد استعدَّ برمحٍ جديد، ليطعن به عدوه الطعنةَ القاضية …

لعبت أفروديت دورها في هذا القتال كأحسن ما يكون، فتدخلت ثانية وخطفت باريس إلى أعلى وأخفته في سديمٍ قاتم، ثم حملته بعيدًا إلى بيته.

جُنَّ جنونُ مينيلاوس عندما رأى أن عدوه قد اختفى، كأن الأرض قد ابتلعته، فاندفع بين صفوف الجيش كالوحش الكاسر يبحث عن خصمه ليفترسه ويشرب من دمائه … ولكنه لم يكن مختفيًا لدى أي فرد من الطرواديين … ولو كان مختفيًا لدى أحدهم لسلمه هذا إلى مينيلاوس؛ لأن الطرواديين كانوا يمقتون باريس، أجمل الرجال، مقتًا لا مزيد عليه. كيف لا، وقد جرَّ عليهم البلاء والشقاء …

عندئذٍ نهض أجاممنون وقال: «أيُّها الطرواديون، الآن قد كسب مينيلاوس المعركة، وفرَّ باريس كما ترون ... إذن أعطونا هيلين وكل ما تمتلك، وعوضوني عن الآلام التي قاسيناها طوال تلك المدة السابقة.»

طرب الإغريق واغتبطوا، عندما سمعوا أجاممنون يتفوه بتلك الكلمات، فصاحوا من الفرح وهللوا، وعلا صياحهم حتى سمعه آخر من في جيوش الطرواديين.

الباب الخامس

كيف أصيب مينيلاوس، وأعمال ديوميديس الرائعة

بينما كان مينيلاوس يبحث عن باريس، كانت هيرا وأثينا تدبران الخطط معًا، والحنق يملأ قلبيهما، وتحيكان أحسن طريقة لإلحاق الضرر بباريس ورجال طروادة.

لم تكن للربتين أي رغبة في إنهاء الحرب الطاحنة بين الأغارقة والطرواديين … ومن ثمَّ سمحتا لباريس الذي تمقتانه بحق، أن يفلت من العقاب …

أسرعت أثينا من فوق ذؤابات جبل أوليمبوس، وهبطت إلى الأرض كأنها شهاب يومض في كبد السماء …

تشكلت أثينا في صورة رجل، وذهبت تبحث عن بانداروس Pandarus، المحارب الشجاع المغوار، والنبَّال الشديد المراس، فلما عثرت عليه قالت له: «اصغ إليَّ يا بانداروس الحكيم، صوِّب الآن سهمًا سريعًا إلى صدر مينيلاوس واقتله؛ فبذلك ستكتسب شهرة فائقة، ويلهج بذكرك الركبان، ويُثني عليك الطرواديون أجمعين، كما يكافئك باريس بأنفس الهدايا وأروع الجوائز الملكيَّة.»

بلغ ذلك الكلام من باندارس، وأخذ من نفسه كل مأخذ، فأخرج قوسه اللامعة من غمده المصنوع من قرن وعل مفترس، كان قد اقتنصه بنفسه من بين الجبال … وكان طول قرنيه ست عشرة قبضة، استطاع بمهارته أن يضمها إلى بعضها ويكسوها بالذهب.

انتقى بانداروس سهمًا من كنانته بعد أن عَجم عوده، ووضعه في القوس، ثم جذب وتر القوس إلى الوراء بقوة فائقة، حتى انحنت القوس في شكل دائرة، ثم ترك الوتر، فانطلق السهمُ الحادُّ يشقُّ طريقَه في الهواء بسرعةٍ خارقة، وكاد يخترق قلب مينيلاوس،

ولكن أثينا نحت به جانبًا ليصطدم بإبزيم حزامه الذهبي … ومع ذلك فقد أصاب جسمه، فتدفق الدم الأسود من جرحه.

لما رأى أجاممنون الدماء تسيل من جرح مينيلاوس، حزن حزنًا بالغًا، ولكن مينيلاوس طمأنه قائلًا: «كُنْ شجاعًا، فليس الجرح عميقًا كما؛ لأن إبزيم حزامي اللامع من الأمام، ودرعي المصفحة من تحته، قد شلَّا حركة السهم المميت، فأصبح تأثيره طفيفًا.»

أرسل أجاممنون في طلب طبيبٍ ماهرٍ لإسعاف مينيلاوس، فلما حضر، أخرج السهم، ومص الدم، وسكب على الجرح عقارًا يحدث جلطة دموية فيوقف النزيف، ثم ربط الجرح بضمادات من الكتان.

بينما كان الطبيب يعالج مينيلاوس، أخذ أجاممنون يجوس خلال صفوف الجيش الإغريقي قائلًا: «هيَّا إلى حمل السلاح، فقد نقض رجال طروادة الهدنة التي أقسموا عليها، وحنثوا بعهد السلام الذي بيننا، وعلينا إذن أن نعاقبهم على ذلك … إن زوس العظيم، لا يساعد الحانثين ولا الكذابين؛ ولذا فإنهم سيخرُّون صرعى أمامنا، وسيقدم لحمهم طعامًا للنسور والطيور الجارحة!»

كان أجاممنون يثني على كل مقاتلٍ يبدي استعداده للقتال، ويعنف كل من يجده متقاعسًا محجمًا، لا فرق في ذلك بين جندي عادي، أو قائد عظيم.

وأخيرًا وصل إلى ديوميدس وصاح فيه قائلًا: «أتتقاعس أنت يا ديوميديس عن القتال؟ ما كان هذا مسلك أبيك قط … لقد كان دائمًا في طليعة الجيش، ولم يحدث أن تقهقر عن خط القتال الأول مطلقًا … ولكن ابنه ليس مقاتلًا مثله، وإن كان يبُذُّه في القول والحديث.»

سمع ديوميديس كلمات أجاممنون، ولكنه لم ينبس ببِنْت شفة، بل ظلَّ صامتًا؛ لأنه كان يحترم الملك أجاممنون احترامًا زائدًا … بيد أن أحد زملائه الواقفين بجواره، والذين كانوا يسمعون الألفاظ التي قيلت له، صاح غاضبًا: «هذا كذب وافتراء يا أجاممنون، فإننا نبذُّ آباءنا جُرأةً وإقدامًا، ونتفوق عليهم شجاعةً وبسالة … ألم نستولِ نحن، بعدد أقل من الرجال ضد حائط أقوى، على مدينة طيبة العظيمة التي كافح آباؤنا ولم يستطيعوا اقتحامها؟»

عندئذٍ عنف ديوميديس الشجاع، رفيقه وقال له: «صه يا أخي، فإنه من الحكمة والصواب، أن يحث أجاممنون محاربيه على القتال، فالمجد سيكون له إن تغلبنا على

رجال طروادة واستولينا على مدينتهم ... كما أن الخزي سيكون من نصيبه إن هزَمنا الطرواديون ... نحن أبناء الأغارقة الشجعان والأبطال الفرسان ... هيًّا إذن! دعْ عنك هذا الكلام وأسرعْ إلى حمل السلاح، فإنه محق فيما يقول.»

قفز ديوميديس من عربته إلى الأرض، فأحدثت عدته الحربيَّة قعقعةً ورنينًا ... وكذلك تقدم جميع الأغارقة واندفعوا نحو جموع الطرواديين كالسيل الجارف، فكما ترفع أمواج البحر العاتية ذؤاباتها أمام مجرى العواصف والأنواء، ثم تتلاطم على الشاطئ صاخبة هائجة، فتقذف برشاشها إلى مسافاتٍ نائية، كذلك تقدم الإغريق إلى القتال بين صفوف رجال طروادة.

وكما تقبل الموجة عقب الموجة، كذلك سارت الجياد عقب الجياد، والرجال واحدًا وراء الآخر. وما كان أشبههم بقطعان الغنم وهم يصيحون عند الكر على أعدائهم.

حارب وسط رجال طروادة، مارس إله الحرب، كما حاربت أثينا من أجل الإغريق، ومعها الفزع والشغب والكفاح الذي لا يعرف التعب أبدًا.

هكذا التقى الجيشان من جديد، فتقاتلا كالذئاب الجائعة. وكان الرجال يجندلون بعضهم بعضًا، فاحمرت الأرض من كثرة الدماء ... أما ضجيج قتالهم فكان أشبه ما يكون بصوت التقاء مجاري الأنهار عندما تنساب إلى الوديان إبان فصل الشتاء والأمطار، في طوفانٍ جنوني.

وكما تهوي الأشجار التي يقطعها الحطابون، محطمة إلى الأرض، كذلك كان الأبطال يتساقطون في حومة الوغى، الواحد تلو الآخر ... فسقط أولًا رجلٌ من طروادة، ثم رجلٌ إغريقيٌّ ... وهكذا ... فرقد في ذلك اليوم طرواديون كثيرون، وأغارقة عديدون ... الواحد بجانب الآخر، أمواتًا فوق التراب ... وما كان هناك متسعٌ من الوقت لإحصاء القتلى أو حتى التعرف على شخصيتهم.

جاءت أثينا في هذه اللحظة إلى ديوميديس، ونفثت فيه قوةً وشجاعة، وأخرجت من خوذته ضوءًا براقًا، يتلألأ لامعًا كأنه نجم يضيء في فصل الصيف.

كان بين الطرواديين شقيقان من النبلاء الأثرياء، وكانا من أمهر المحاربين وأحنكهم في أساليب القتال، فقذف أحدهما رمحًا من عربته صوب ديوميديس الواقف على قدميه، ولكنه أخطأ الهدف وراح رمحه يحفر في الأرض ... عندئذٍ قذف ديوميديس رمحه فأصاب عدوه في صدره، فسقط لتوه يتخبط في دمائه صريعًا، وهوى من عربته إلى الأرض مضرجًا بالدم ... فلما رأى أخوه ما حدث، أطلق العنان لقدميه، وجرى مسرعًا

رجليه؛ خشية أن يُقتل هو أيضًا ... فخلَّف وراءه عربته الجميلة، التي أسرع إليها ديوميديس وقاد جيادها، وسلمها لرجاله ليحفظوها له.

وإذ كانت أثينا ترقب العراك عن كثب، فقد أخذت الربَّ مارس من يده، وانتحت به جانبًا، وقالت له: «لقد لعبنا أدوارنا في هذا القتال، فكفى وهيًّا بنا نترك الأغارقة والطرواديين يتقاتلون قتالًا حرًّا، ولندع زوس يعطي النصر لمن يهوى ويختار.»

بعد ذلك انسحب مارس وجلس على حافة نهر سكاماندر، كما انسحبت أثينا أيضًا، واستمر الطرواديون والإغريق يتحاربون حربًا مشروعة، دون مساعدة أحد من الآلهة ...

كانوا يقاتلون كالأبطال، وكالأبطال كانوا يقتلون بعضهم بعضًا، ويموتون ... ولكن ما من أحدٍ قاتل مثل ديوميديس، الذي كان يكرُّ على العدو بطول السهل، فيكتسح ما أمامه، يضرب ذات اليمين وذات الشمال فيحصد الرءوس حصدًا، وتتجندل الجثث حواليه ... وكان كلما تقدم إلى الأمام يعدو الرجال أمامه مدبرين، خشية بطشه، وخوف بأسه.

فلما أبصره بانداروس القوَّاس مقبلًا نحوه كالأسد الهصور، جذب قوسه وصوب سهمًا بسرعة للقائه ... وما هي إلا طرفة عين، حتى انطلق السهم نحو ديوميديس، فتلطخ درعه بالدماء ...

ما كان أعظم فرح باندروس عندما رأى سهمه يصيب خصمه، فأنشأ يصيح بصوتٍ عالٍ قائلًا: «أيها الطرواديون الأبطال، تحركوا وهبوا للقتال ولا تخافوا الآن من الأغارقة، فقد جرحت خير رجالهم، وسرعان ما سوف يموت من السهم الذي أصبته به فاستقر في كتفه.»

هكذا كان باندروس يملأ شدقيه فخرًا، ويتغنى بإصابته ديوميديس، ولكن هذا الأخير قفز من فوق عربته، وقال لسائقها: «أسرعْ يا هذا وانزعْ هذا السهم اللعين من كتفي.»

لبَّى السائق أمر سيده، وفي لمح البصر نزع السهم فتدفق الدمُ غزيرًا من جرح ديوميديس الذي صاح عندئذٍ يخاطب الربَّة أثينا: «أصغِ إليَّ يا أثينا! لو أنكِ حقًّا وقفتِ بجانب أبي تعضدينه على القتال حتى خرج ظافرًا، فلتقفي الآن إلى جانبي، لتحمليني من مرمى رمحٍ من هذا الرجل الذي جرحني، واجعلي في استطاعتي أن أنال منه مقتلًا.»

هكذا صلَّى ديوميديس، فاستمعت إليه الربَّة أثينا وأجابته بقولها: «تشجع يا ديوميديس، فقد استجبت لطلبك، ولكن لو التقيت بأحد من الآلهة في القتال، فلا تضربنَّ أحدًا غير أفروديت الذهبيَّة.»

استدار ديوميديس على عقبيه، واتجه صوب القتال، وقد أحسَّ أنْ أصبحت قوته ثلاثة أضعاف ما كانت عليه من قبل، وسرَت في دمه شجاعة وجرأة نادرتان لم يعهدهما قبل ذلك، فاندفع يقاتل كالأسد الثائر يهجم على من اعتدى على أشباله.

سقط أمام ديوميديس عشرات من المحاربين الشجعان، فاستولى على جيادهم وأعطاها لرجاله ليقودوها إلى السفن.

نهض أينياس قائد الجيش الطروادي، وكان أبوه محاربًا مقدامًا من البشر وأمه الربَّة أفروديت، وصاح في بانداروس النبَّال قائلًا: «أين قوسك وسهامك يا باندروس؟ ألا تستطيع أن تقتلَ هذا الرجل الذي يضرب ذات اليمين وذات الشمال، فيُنزل الدمار بجيشنا ورجالنا؟»

فأجاب باندروس: «أعتقد أن هذا الرجل هو ديوميديس، فقد سبق أن سددتُ إليه سهمًا اخترق كتفه، ولكن بدون جدوى فلم يُصبه بأدنى ضرر، لا شكَّ أنه ليس إنسانًا، بل إلهًا حانقًا. لقد خلَّفت ورائي في وطني العزيز إحدى عشرة عربة متينة الصنع، لكل عربة زوج من الجياد ... ولما خشيت ألا تجد خيولي علفًا لها في المعسكر، فقد تركتها هناك؛ ولذلك فليس لي عربة الآن، بل قوسي فحسب، وحتى قوسي لا تنفعني الآن، إذ ضربت بها مينيلاوس وديوميديس، وقد أصابت كل ضربة هدفها، ومع ذلك فإنهما لم يموتا.»

فنهره أينياس قائلًا: «صه، لا تهذِ هكذا، ولا تكن ثرثارًا، اصعد إلى عربتي، واقبض على أعنة الخيل، وأمسك السوط، وسأقف أنا فوق العربة، وأقاتل بنفسي ديوميديس.»

فقال باندروس: «كلا، ما هذا بالرأي الصائب، كيف لجيادك أن يقودها شخص لا تعرفه، أو أن تسمع صوتًا غريبًا؟ إنها لو سمعت صوتًا غير صوت سائقها، لا بُدَّ أن تصاب بالجنون والخوف فتجفل ... إذن، خُذْ أنت الأعنة وقُد جيادك واتركني أتقدم برمحي ضد ديوميديس.»

اعتلى أينياس ظهر عربته، وتبعه باندروس، وحثَّا الجياد على الإسراع صوب ديوميديس، فلما رآهما سائق ديوميديس، مقبلين نحوه، خاطب ديوميديس قائلًا: «أيْ ديوميديس، إن أينياس وباندروس آتيان لمهاجمتك، وكلاهما محارب قوي كما تعلم، هيَّا بسرعة نصعد إلى عربتنا قبل أن يفاجئانا.»

فأجاب ديوميديس: «لا تفكر في الفرار، فلست ممن يقعقع لهم بالشنان، أو ممن يتوارَوْن في مثل هذا الموقف ... أما عنهما فلن ينجوَ مني أحدٌ منهما ... أما إذا شاءت

الربَّة أثينا أن أقتل كليهما معًا، فأوقف عربتي إذن حيث هي، واربط الأعنة إلى حافة العربة، واقفز فوق جياد أينياس، وقُدها قدمًا إلى جيش الإغريق فإنه لا توجد خيول تحت الشمس تفضل جياد أينياس الشهيرة بسرعتها الفائقة وجرأتها الفذة.»

عندما اقترب بانداروس وأينياس، تناول بانداروس رمحه البرنزي، ورفعه مسددًا نحو ديوميديس، ثم قذف به في قوةٍ وعنف، فانطلق الرمح يدوي في الهواء، واخترق درع ديوميديس حتى وصل إلى صدريته ...

اغتبط بانداروس وصاح: «لقد أصبت فخذك يا ديوميديس، ولسوف ما تتردى سريعًا على ما أعتقد، فقد نفذ الرمح في جسمك.»

بيد أن ديوميديس أجابه غير هيَّاب ولا وجِل: «كلا يا هذا، لقد أخطأتني ولم تصبني.»

قال هذا ثم قذف حربته فمرقت بسرعة فائقة في أنف وأسنان ولسان بانداروس ... فسقط من العربة يتخبط في دمائه، وأحدث ارتطام عدته الحربيَّة بالأرض صوتًا مسموعًا، وانتحت جياد أينياس جانبًا لتنأى عن جثة بانداروس الهامدة.

قفز أينياس من عربته، ووقف منفرج الرجلين إلى جانب جثة بانداروس الباردة، كأنه أسد قد وقع في محظور، خشية أن يأخذ الأغارقة منه جثَّة صديقه.

أمسك ديوميديس صخرة، وقذف بها أينياس في فخذه، فهشم العظم ومزَّق الجلد ... سقط أينياس العظيم على ركبتيه، يتلوى من الألم، وكاد يهلك لولا أن أفروديت، أبصرت الخطر المحدق بابنها فأسرعت إليه، ولفت ذراعيها البضتين حوله، وراحت تحمله بعيدًا آمنًا معافى.

رأى ديوميديس ذلك، فقفز من عربته، وجرى مسرعًا يقتفي أثر أفروديت، حتى قاب قوس، فقذفها برمحه الثقيل، فاستطاع أن يحدث جرحًا عميقًا في رسغها.

صاحت أفروديت صيحة بالغة من شدة الألم، تجاوبت أجواز الفضاء أصداءها، وأسقطت ابنها من قبضة ذراعيها، ولكن أحد الآلهة الآخرين، كان قريبًا منها، فحمله بعيدًا في دثار من السحاب.

عندئذٍ صاح ديوميديس قائلًا: «عليك اللعنة يا أفروديت! يكفي حقًّا أن تخدعني النساء الضعيفات، وتبتعدي عن القتال!»

ثم قفز على أينياس، دون أن يعرف أنه يمسك بإله ... وحاول ثلاث مرات أن يفتك بأبنياس، ولكن الربَّ دفعه بعيدًا ثلاث مرات.

وصاح الربُّ بصوتٍ مجلجلٍ مخيف، ألقى الرعب في أوصال ديوميديس، وجعله يرتجف من قمة رأسه إلى أخمص قدمه، وقال: «خُذْ حذرك يا ديوميديس، فإنك تحارب الآلهة.»

أقبلت الآلهة إلى الحرب، واشتركت في القتال، ضد الأغارقة والطرواديين؛ ذلك لأن مارس وهيرا وأثينا، حاربوا حربًا جنونية وسط الجيوش.

صاحت أثينا قائلة: «عارٌ عليكم يا رجال الإغريق، ما لكم لا تقاتلون بشجاعة، أين فرسانكم؟ أين أبطالكم وقادتكم؟ عندما كان أشيل يقاتل في صفوفكم، لم يجسر الطرواديون قط أن يمروا خارج أسوارهم ... ولكنهم الآن قد اقتربوا من سفنكم ويقاتلونكم عند الشاطئ، أهكذا تكون شجاعة الأغارقة؟ أين صيتكم الذي طبق الآفاق، وأين شهرتكم في القتال التي كانت مضرب الأمثال؟! لقد ضاعت الجرأة وانعدم الإقدام بين صفوفكم.»

وهكذا أشعلت أثينا الحمية والحماس في الإغريقيين.

بعد ذلك توجهت أثينا صوب ديوميديس، فوجدته واقفًا بجانب عربته يجفف الدم الذي كان ينزف من الجرح الذي أنزله به بانداروس. فقالت له: «ما هذا يا ديوميديس؟ إنك لست بالابن الجدير بأبيك الشجاع. لقد انتصر أبوك على عدة أبطال مغاوير وقاتل عمالقة وصناديد بمفرده، وأنت تقاتل وأنا بجانبك لحمايتك، ومع ذلك فإن الوهن يعتورك، والخوف يملأ قلبك.»

فأجاب ديوميديس: «ما أنا بخائفٍ ولا واهنٍ، ولكنك أخبرتني ألا أضرب أحدًا من الآلهة غير أفروديت ... وهأنذا الآن أرى الرب مارس يشترك في القتال، فيقود رجال طروادة؛ ولذا أحجمت يدي عن مقاتلته، كما منعت رجالي من القتال إذعانًا لأمرك.»

فأردفت أثينا البراقة العينين قائلةً: «أي ديوميديس! يا بهجة قلبي وبهجة فؤادي، لا تخشَ مارس أو أي إله آخر ... لأنني سأكون مُعينتك في سوق الوغى، اذهب الآن بعربتك، وقُدْها ضد مارس، وتَقاتَلْ معه يدًا بيد، فقد وعدني اليوم أن يقاتل دفاعًا عن الأغارقة، وها هو الآن يُحارب ضدهم؛ إذن فقد حنث بوعده وخالف الميثاق.»

قالت ذلك ثم أمرت سائق ديوميديس أن يخليَ لها مكانه، فقادت بنفسها الجياد الثائرة ممسكة الأعِنَّة والسوط بيديها الرَّخْصتين.

أبصر مارس عربة ديوميديس تقترب منه، تاركةً وراءها كثيرًا من القتلى، وكان مشتاقًا إلى لقاء ديوميديس، فرفع رُمحه وقذفه بقوةٍ نحو ديوميديس، ولكن الربَّة أثينا،

أمسكت الحربة بيدها، وأبعدتها جانبًا، فلم تُصب هدفها ... عندئذٍ قذف ديوميديس رمحه البرنزي صوب مارس، فوجهته أثينا إلى أن اخترق فخذ ربِّ الحرب، وجعلته يتلوى من عظم الألم.

وكما يصرخ في القتال تسعةُ أو عشرةُ آلافِ مقاتلٍ، فيصل صراخهم إلى عنان السماء، كذلك زأر مارس زئيرًا مدوِّيًا، من شدة الغضب والألم.

وكسحابة راعدة، صعد الربُّ مارس في الجو، مكتسحًا الفضاء ومخترقًا السموات، حتى بلغ أوليمبوس.

ومع ذلك فقد استمر القتال على أشده، وحَلَّ الحزن بكثيرين كمدًا على من قتلوا في الحرب إبان ذلك اليوم العبوس القمطرير.

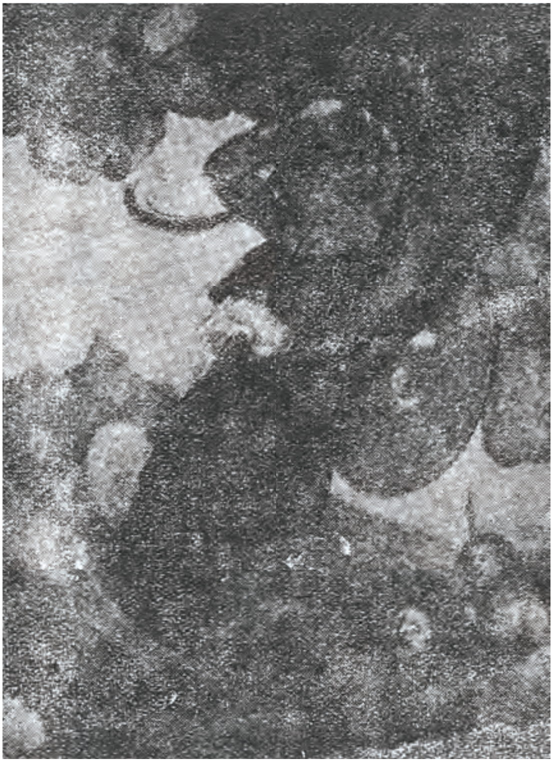

وكسحابة راعدة، صعد الربُّ مارس في الجو ... حتى بلغ أوليمبوس.

الباب السادس

هكتور وأندروماخي

ترك هكتور بن بريام، المكان الذي تدور فيه رحى الحرب طاحنة، وظل سائرًا حتى بلغ شجرة البلوط القريبة من أبواب طروادة، فأسرعت إليه زوجاتُ وبناتُ المحاربين الذين يقاتلون، وتهافتن لِلِقائه؛ لأنه قد برَّح بهنَّ الشوقُ إلى معرفة أنباء ذويهنَّ الذين يرقدون وقتئذٍ أمواتًا في ساحة القتال، وكل واحدة منهنَّ تدفع الأخرى لتسأله عن زوجها أو أبيها، وهل هو لا يزال حيًّا يُرزق أم قد تردى في حومة الوغى ... وهكذا حتى ضاق بهنَّ ذَرْعًا.

ظلَّ هكتور يناضل ويشقُّ طريقه وسط جموع السيدات والفتيات حتى بلغ قصرَ أبيه الجميل، الكثير الأعمدة المصنوعة من المرمر الناصع ... فجاءت أمه للقائه.

أمسكت أمه بيده في حنان ورفق، وتحدثت إليه في لين قائلة: «أراك مغتمًّا مهمومًا يا ولدي العزيز؛ لأنك تركت القتال يا هكتور! فلأحضرنَّ لك إذن شيئًا من الخمر المعتقة؛ كي تنتعش وتستعيد قوتك من جديد.»

فأجاب هكتور: «أماه! والدتي العزيزة! لا تحضري لي أية خمر؛ خشية أن تسلبني قوتي وشجاعتي ... فما جئت لهذا الغرض، وما بي شوقٌ إلى شيء منها ... بل اذهبي مسرعة إلى معبد أثينا، وقدِّمي لها الذبائح، وتوسلي إليها أن ترحم طروادة، وزوجات الطرواديين وأطفالهم الصغار ... فلعلها بذلك تحدُّ من بطش ديوميديس المخرب، وتكبح جماحه ... فقد أعملَ في رجالنا وخيرة أبطالنا التقتيل والطعن، حتى خرَّ مئات الفرسان المغاوير صرعى أمام رمحه اللعين ... أما أنا فسأذهب إلى باريس، ليته مات!»

قامت والدةُ هكتور في الحال، وحذا حذوها كثيرٌ من الأمهات المسنات الأخريات، من أمهات الأبطال والمقاتلين، وتوجهنَّ جميعًا إلى معبد الربَّة أثينا، وقد أخذن معهن كثيرًا

من الذبائح، فقدمنها للربة، وتوسلن إليها، كما طلب منهن هكتور، ولكن أثينا كانت غير راضية عن الطرواديين، فلم تُصغِ إلى تضرعاتهنَّ أو صلواتهنَّ.

أما هكتور، فقد توجه إلى قصر باريس، حاملًا في يده رمحه البرنزي العتيد.

كان باريسُ، الذهبيُّ الشعر، يجلس وقتئذٍ في إحدى حجرات القصر، مع هيلين، وقد أمسك في كسلٍ وتراخٍ، درعه البراقة، وصدريته المدرعة، وقوسه المعقوفة، كأنما لا ناقة له في تلك الحرب ولا جمل.

أبصر هكتور أخاه على تلك الحال، فنظر إليه نظرة احتقار وازدراء، وصاح فيه صيحة كلها سخرية وامتعاض قائلًا: «يموت شعبنا في القتال من أجلك يا أخس الناس، بينما تجلس أنت هنا خاملًا لعوبًا! هيَّا أسرع إلى ساحة الروع، قبل أن يقدم من خلقت منهم أعداء لنا، فيحرقوا مدينتنا، ويتركوها لنا أنقاضًا.»

فأجاب باريس قائلًا: «صدقتَ يا أخي، وأنت محقٌّ في أن تُعنفني يا هكتور … ففي هذه اللحظة بالذات، كانت هيلين تحثني على أن أقوم بدوري كرجل، وأعود أدراجي إلى القتال، فرُوَيْدَك حتى أرتديَ حُلَّتي المدرعة، وسألحق بك سريعًا.»

لم يرد هكتور على أخيه، ولم يجبه ببِنْت شفة، بل نظر إليه شزرًا.

ثم قالت هيلين لهكتور: «أخي هكتور، إنني لأشعر بأني لست جديرة بأن أكون شقيقتك … ليتني متُّ يوم ولدتُ، أو ليت الآلهة جلبت عليَّ هذا الشر، قد أعطتني زوجًا يخجل من العار، أو يخشى الفضيحة. استرح هنا أيُّها الأخ، يا من تحملت كثيرًا من أجلي أنا التعسة، ومن أجل جريمة باريس. إنني أعلم حق العلم، أنه في انتظارنا عقوبة سيتحدث عنها جميع البشر في السنين البعيدة المقبلة.»

فأجابها هكتور: «لعمركِ، لا تطلبي مني البقاء، فمساعدة الرجال الطرواديين في محنتهم الحالية هو كل ما يشغل بالي ويُقلق فؤادي … إنهم الآن في مسيس الحاجة إلى وجودي بينهم … ولكن انهضي بهذا الرجل واجعليه يسرع في إثري. إنني ذاهب الآن لمشاهدة زوجتي العزيزة وطفلي؛ لأنني لا أعلم ما إذا كنت سأعود إليهما ثانية، أم ألحق بمن خضبوا الأرض بدمائهم.»

لم يجد هكتور زوجته الفاتنة أندروماخي، ولا طفله الصغير في منزله، فأخذ يبحث عنهما في كل حجرة، ولكن دون جدوى، ولما أعياه البحث، سأل الخادمات في لهفة زائدة، وعيناه زائغتان: «أين ذهبت سيدتكنَّ؟»

فأجابت إحداهنَّ وقالت: «لقد جاءتنا أنباء تؤكد أن الطرواديين قد هُزموا هزيمة شنعاء، وأن النصر كان حليف الأغارقة … فلم تجد سيدتي بُدًّا من أن تصحب طفلها

ومرضعته، وتسرع كالمجنونة إلى الحوائط، لترى بعض ما حدث، وهي الآن واقفة هناك فوق القلعة باكية ناحبة.»

عندما سمع هكتور ذلك، عاد مسرعًا، مخترقًا الطرق التي جاء منها، فلما اقترب من الأبواب لمحته زوجته أندروماخي من بعيد، فجَرَتْ مسرعة للقائه.

فلما تشابكت أيديهما، وقف هكتور، كما وقفت أندروماخي، وأخذ هكتور ينظر في صمت إلى الطفل الجميل الذي تحمله المرضعة بين ذراعيها، وابتسم ...

كان شعب طروادة يطلقون على الطفل اسم أستواناكس Astyanax، أي ملك المدينة؛ لأن أباه هكتور هو الذي أنقذ المدينة.

عندئذٍ قالت أندروماخي: «سيِّدي العزيز، لن تجرَّ عليك شجاعتُك سوى الموت الزؤام ... ألا تُشفق على هذا الطفل، أو على زوجتك؟ سرعان ما ستصبح زوجتُك أرملتَك. خير لي أن أموت لو قُتلتَ في هذه الحرب؛ إذ لو فقدتك، فلسوف يكون الحزن والكمد حليفي إلى الأبد ... إنني يتيمة الأبوين، وقد قُتل أشقائي السبعة في يوم واحد، فأنت لي الآن يا هكتور، أبي وأمي وإخوتي، فضلًا عن كونك زوجي العزيز المحبوب ... فارحمني إذن، وارحم طفلك هذا، وامكُث مع زوجتك وابنك الصغير ... ولا تذهب إلى ميدان القتال، فكفى من قُتلوا وخلَّفوا الفجيعة والأسى لعائلاتهم وأولادهم وأصدقائهم.»

فأجابها هكتور قائلًا: «زوجتي العزيزة، إنني أعرف هذه الأشياء كلها جيدًا، غير أن العارَ الدائمَ، والذلَّ الأبديَّ سيلحقانني إن أنا أحجمت عن القتال، وأُصبح في نظر الجميع جبانًا رعديدًا، خائنًا لوطنه وشعبه. إنني لم أتعود الفرار من القتال قط، إذ كانت عادتي دائمًا أن أذهب إلى حيث تدور أعنف المعارك، وأن أكسب المجد لنفسي ولأبي ... بيد أن هذا المجد سرعان ما سيزول؛ لأن قلبي يحدثني أن طروادة يجب أن تسقط. ومع ذلك فإن حزني من أجل آلام الطرواديين، ومن أجل أبي وأمي وإخوتي، والأبطال الكثيرين الذين سيموتون حتمًا، لأقلُّ من حزني على ذلك الألم المبرح الذي يجب أن ينزل بك يوم أموت وتصبحين بلا زوج يدافع عنك ... عندما يأخذك أحدُ الأغارقة سجينة أسيرة ... ليت الثرى يُغطيني قبل أن أسمعك تصيحين يا أندروماخي.»

هكذا تحدث هيكتور إلى زوجته أندروماخي، ثم بسط ذراعيه ليأخذ طفله ... ففزع الطفل من خوذة أبيه البرنزية، بريشتها العنيفة الحركات المصنوعة من ذيل الحصان، وأخفى وجهه في صدر مرضعته ... عند ذلك ضحك أبوه كما ضحكت أمُّه عاليًا ... وفي الحال خلع هكتور خوذته ووضعها على الأرض، ثم حمل ابنه الصغير في ذراعيه وقبَّله،

وأخذ يداعبه في رفقٍ وحنانٍ … وما إن فعل ذلك حتى تضرع إلى زوس وجميع الآلهة قائلًا: «أي زوس! أي جميع الآلهة، لتكن مشيئتكم أن يصبح ابني هذا محاربًا شجاعًا مقدامًا، وملكًا عظيمًا في بلاد طروادة، فليكن بطلًا مُعَلَّمًا حتى يقول الناس عنه عندما يعود من حومة الوغى: إنه أعظم من أبيه كثيرًا جدًّا … هل له أن يُدخل السرور دائمًا على قلب والدته.»

بعدئذٍ وضع هكتور الطفل بين يدي أندروماخي، فأخذته في أحضانها، ودموعها تختلط بالابتسامة التي ارتسمت على وجهها.

امتلأ قلب هكتور بالحب والشفقة والحنان، فأخذ يربت عليها في حنان زائد وهو يقول: «عزيزتي، أرجو ألا تحملي في صدرك قلبًا حزينًا، فلن ينقص من أجلي ثانية واحدة، ولن يقتلني أحد، مهما كان شجاعًا، قبل الميعاد المحدد لموتي. اذهبي الآن إلى منزلك، واشغلي نفسك بالمنسج، وأشرفي على أعمال الخادمات في البيت، فهذا ما يخصك. أما الحرب فلنا نحن الرجال، ولجميع الذين يقطنون في بلاد طروادة، وهي بالأكثر، لي أنا وحدي …»

هكذا تكلم هكتور، ثم وضع خوذته ثانية على رأسه، تلك الخوذة المحلاة بقبرة من البرنز، وسار في طريقه إلى ساحة الوغى، بينما ذهبت أندروماخي إلى البيت، وهي تنظر خلفها مرارًا عديدة، لتراقب بعْلها، الذي تُحبه أكثر من أيِّ شخص في الدنيا، وهو في طريقه إلى القتال، والدموع المنهمرة تبلل عينيها.

سار هكتور إلى القتال، وكان يسير وراءه بمسافة قصيرة، باريس بعدته الحربيَّة تلمع كالشمس، وعلى وجهه ضحكة لا تعدلها ضحكة أي رجل آخر في الأرض كلها … وكان يسرع في خطاه قُدُمًا إلى الأمام، كأنه جواد أصيل قد حطم قيوده، وأخذ يعدو عبر السهل في خيلاء وتطاوس.

فلما لحق باريس بأخيه هكتور، خاطبه قائلًا: «أخشى أن أكون قد أخرتك.» فأجاب هكتور: «لا يمكن لأحد أن يستخفَّ بشجاعتك يا باريس، فإنك حقًّا بطلٌ مغوار، لك مواقع مشهودة في القتال، ويخشى بأسك كثير من المقاتلين العتاة، غير أن كل ما في الأمر، أنك قد جلبت العار على نفسك بإحجامك عن القتال. هيَّا بنا نذهب الآن بخطى سريعة إلى ميدان الحرب، وليت الآلهة توقع الإغريق في أيدينا.»

هكذا ذهب هكتور وباريس سويًّا إلى القتال، وفي ذلك اليوم قتلا كثيرًا من أبطال الإغريق.

الباب السابع

القتال بين هكتور وأجاكس

كانت الربَّةُ أثينا في أوليمبوس ترقُب القتال بقلبٍ حزينٍ، وكانت نفسها تنقبض عندما ترى فرسان الأغارقة يسقطون صرعى أمام رماح هكتور وباريس.

فذهبت إلى أخيها أبولو، وطلبت منه أن يساعدها في حَبْك خيوط خطة لهزيمة رجال طروادة الذين ينقضون على الإغريق انقضاض الصاعقة، فيذيقونهم كأس الردى، وأوشكوا أن ينتصروا عليهم، فتكون المعركة الفاصلة.

فغرست أثينا بمعونة أبولو، في قلب هكتور، الميل إلى الكفِّ عن القتال بين أبطال طروادة وفرسان الإغريق، ويعلن على الملأ أنه يتحدى أشجع رجال الأغارقة أن يبارزه، فمن يأنس في نفسه الشجاعة الكافية من أبطال الإغريق، فلينازل هكتور في الصراع؛ وذلك حقنًا لدماء الطرواديين والأغارقة …

عندئذٍ أوقف كل من هكتور وأجاممنون القتال، وفي غبطة وسرور طلب هكتور من الأغارقة أن يرسلوا إليه أعظم فرسانهم قوةً وجرأةً وإقدامًا؛ كي يقاتله يدًا بيد، قائلًا لهم: «لو تغلب بطلكم وقتلني … لحُقَّ له أن يجردني من عُدَّتي وعتادي الحربي، ويبعث بجثتي إلى بيتي … أما إن انتصرت عليه وصرعته، فستكون عُدَّته الحربيَّة من نصيبي، وسوف يأخذ الإغريق جثته، ويدفنونها في قبر ببلادهم بالقرب من شاطئ البحر، حتى يستطيع الناس في المستقبل، أن يروا قبره وهم يركبون اليمَّ، ويقولوا: هذا رَمْس من مات في سالف الأزمان، هذا قبر البطل الإغريقي الذي قتله هكتور.»

كان لإعلان هكتور هذا وقع الصاعقة على رجال الإغريق لأنهم كانوا يرهبون ملاقاته، فوقفوا صامتين لا يحيرون جوابًا ولا يُبدون حراكًا، وفي نفس الوقت كان الخجل يخيم عليهم جميعًا لإظهارهم الخوف والوجل من مبارزة هكتور.

تطلع مينيلاوس إلى قومه ليرى من سيتقدم منهم، ولكن أحدًا منهم لم يجرؤ على الوقوف أمام هكتور. وعندئذٍ نهض مينيلاوس نفسه، ولبس عُدَّته الحربيَّة، ملقيًا على رجاله نظرةَ احتقارٍ وازدراءٍ، وقال لهم: «ويحكم أيها الجبناء الرعاديد ... ويلٌ لرجال الإغريق من العار الذي حطَّ على رءوسهم، سأقاتل أنا نفسي هكتور، ولسوف تقتل الآلهة من ترغب هي في موته ...»

بيد أن أجاممنون رفض أن يقاتل أخوه، فقال له: «عُدْ أدراجك يا مينيلاوس، هذا محض جنون منك أن تتقدم لمنازلة هكتور ... إن أشيل نفسه كان يرهب لقاء هذا الرجل في أيِّ عراك، ولكم يفوقك أشيل قوةً وجسارة.»

عندئذٍ نهض تسعة من أبطال الإغريق وقادتهم، وأعلنوا استعدادهم لمنازلة هكتور ... فأُجريت القرعة بينهم لمعرفة من منهم سيحظى بمقاتلة بطل رجال طروادة.

فلما تقاسموا بالأزلام كان من نصيب أجاكس Ajax شبيه العمالقة أن يبارز هكتور؛ فامتلأ قلبه غبطةً وسرورًا، ونهض في الحال وارتدى عدَّة القتال المصنوعة من البرنز البراق. وتقدم بخطى ثابتة إلى الأمام، وقد ارتسمت على وجهه العبوس ابتسامة عريضة، وكان يحمل في يده القويَّة رمحه الطويل، يهزُّه في الفضاء ويلوح به، وكان يبدو في حالته هذه كأنه مارس العظيم يشق طريقه إلى القتال.

ارتعد الطرواديون فرائص وأعضاء عند رؤيتهم هذا البطل الفارع الطول المفتول العضل العريض المنكبين، وحتى هكتور نفسه قد أسرعت ضرباتُ قلبَه ارتياعًا والتياعًا، عندما أبصر العملاق يتقدم صوبه في جرأةٍ نادرةٍ وإقدامٍ ما بعده إقدام، وفي ذلك الوقت صاح أجاكس قائلًا: «إن أشيل ذا قلبِ الأسد، قابع بجوار سفنه، ومع ذلك، فلتعلم يا هكتور أن بين الأغارقة أبطالًا صناديد غير أشيل، وأن بين صفوفهم محاربين مغاورة، وإني لأسمح لك يا هكتور أن تبدأ القتال.»

فأجابه هكتور: «أي أجاكس! أتظنني امرأةً أو صبيًّا ضعيفًا لا يدري شيئًا عن القتال؟ ثكِلَتْكَ أُمُّكَ!

إنني لعلى علمٍ تامٍّ بأفانين القتال وحيل الحرب، ولكني لا أستطيع أن أفكر الآن في استعمال المكر والدَّهاء معك ... وسأضربك علنًا لو كان لي أن أضربك.»

وما هي إلا طرفة عين حتى قذف هكتور رمحه البرنزي نحو أجاكس، فتلقَّى الأخير الضربة بدرعه القويَّة ذات الطبقات السبع الجلدية، فلم يخترق الرمح منها سوى ست طبقات فحسب. فانقضَّ أجاكس العملاق وأطلق رمحه من يده بقوة هائلة، فاخترق

درع هكتور اللامعة، كما نفذ في سترته الحربيَّة فمزَّقها عند فخذه، فانتحى هكتور جانبًا، وبذا تحاشى الموت.

عندئذٍ أمسك كلٌّ منهما برمحٍ جديد، وهجما كغضنفرين ثائرين يريدان أن يفترسا بعضهما … فأصاب هكتور برمحه درعَ أجاكس مرةً ثانية، ولكن طرف الرمح انثنى دون أن ينفذ من الدرع … وقذف أجاكس برمحه بشدة، فاخترق درعَ هكتور، وأصاب الطرف عنقه؛ فانبثقت الدماء السوداء متدفقة من الجرح … بيد أنه مع ذلك لم يكفَّ عن القتال، فانحنى وأمسك بقطعة من الصخر ذات نتوءات بارزة، كانت على الأرض بقربه، وطوَّح بها صوب درع أجاكس، فصدر عنها رنينٌ مجلجل … فأمسك أجاكس بصخرةٍ أعظم منها وقذفها بقوةٍ صوب درع هكتور، فحطمت الدرع تحطيمًا، وانقلب هكتور إلى الوراء، وسقط، وكاد يلقى حتفه، لولا أن أبولو رفعه بيدٍ خفيةٍ وأوقفه على قدميه.

بعد ذلك استلَّ كل منهما حسامه البتار، وكادا يشرعان في المبارزة، لو لم يهجم الرسل ليقفوا بينهما، ويفصلوهما بهراواتهم.

فقام رسولُ طروادة وقال: «أيُّها البطلان، كفاكما قتالًا، لقد أيقنَّا دون أي شك أنكما بطلان عظيمان، ومقاتلان شجاعان، وأن زوس يُحب كليكما ويعضده، غير أن زنجي الدجى ينشر أجنحته السوداء على الكون فيلفه في غلالةٍ قاتمةٍ، ويأمركما بالكف عن القتال.»

فأجاب أجاكس: «يجب على هكتور أن يتكلم؛ لأنه هو الذي تحدَّى، ودعا إلى القتال أشجع الأغارقة أجمعين … وإني لأمتثل لرغبته …»

فقال هكتور: «لقد حَبَتْكَ الآلهةُ بالقوام والقوة والحكمة يا أجاكس … وما من شكٍّ في أنه لا يوجد بين الأغارقة محارب أقوى منك ولا أشد … وها هو الليل يهبط بخيمته الدكناء، فتتعذر الرؤية، فدعنا نكف عن القتال الآن، على أن نستأنف القتال فيما بعد … وحسب الآلهة أن تمنح النصر أحدنا … ولكن هيَّا بنا نتبادل الهدايا الآن، حتى يقول الطرواديون والإغريق إن أجاكس وهكتور قد التقيا في صراع مرير، ولكنهما افترقا في إخاءٍ وفير.»

هكذا تكلم هكتور، وقدَّم إلى أجاكس سيفه المرصع بالفضة بغمده وحمائله … فأعطاه أجاكس زناره الأرجواني البراق.

هكذا افترق البطلان، وعمَّ السرورُ رجالَ طروادة والإغريق، لعودة البطلين سالمين.

الباب الثامن

حرق الموتى ومعركة السهل

عمَّ الفرحُ صفوفَ الأغارقة، وطربوا جذلًا لما أبداه بطلهم ونائبهم أجاكس من شجاعةٍ فذةٍ في قتال أعظم أبطال طروادة، وقد رجع إليهم سالمًا غير مخذول ولا مهزوم، بل أصاب هكتور بجراح بالغة، وكاد يصرعه، دون أن يصيبه هو أدنى أذى أو مكروه، فأقاموا لذلك وليمةً فخمةً عظيمة، مُدَّت بين صفوفهم، حافلة بأطيب الأطعمة وأفخر المشروبات. وما كادوا ينتهون من مأدُبتهم هذه حتى هبَّ نسطور Nestor أكبر المحاربين سنًّا، وأوفرهم حكمة، واقترح على الأغارقة جمع جثث قتلاهم في فجر الغد، وحرقها فوق كومة حطب كبيرة.

وبينما كان قادةُ الإغريقِ يتشاورون فيما بينهم في فترة السلام، كان رجالُ طروادة يتجادلون عند باب مدينتهم، مجادلةً حادَّةً تدل على الحنق وشدة الغضب. فقال أحدهم: «كيف نأمل في أن نستطيع التوفيق في القتال، ما دمنا قد حنثنا في قَسَمنا؟ فلنرد إذن هيلين الفاتنة، وكل ثروتها إلى الأغارقة.»

ولكن باريس هبَّ غاضبًا وقال: «إنك لمجنون حقًّا يا هذا! كيف تقدر أنني سأخضع لرأيك وأفعل حسبما تُشير؟ إنني سأرد ثروة هيلين بنفسٍ راضية، وأضيف إليها ثروة أخرى من عندي، أما زوجتي هيلين فلن أردها مطلقًا، مهما حدث، ومهما ساءت المغبة.»

وفي فجر اليوم التالي، ذهب الرسل الطرواديون إلى معسكر أجاممنون، وسلموه رسالة، هذه فحواها: «يقول بريام طروادة وجميع نبلائه، إن الثروة التي جلبتها هيلين معها إلى طروادة، سيردها باريس ثانية، ومعها قدرٌ عظيمٌ من ثروته هو ... أما زوجة مينيلاوس الحسناء، فيقول إنه لن يسلمها أبدًا ... ونرجو أن تمنحونا هُدنة حتى ندفن موتانا، على أن نستأنف القتال من جديدٍ إلى أن تمنحنا الآلهة النصر.»

فقام ديوميديس وقال: «دعونا لا نأخذ شيئًا من ثروة هيلين أو من ثروة باريس … وحتى لا نأخذ هيلين نفسها؛ لأننا نعلم علم اليقين أن أيام طروادة قد صارت معدودة.»

عندئذٍ صاح جيشُ الإغريق بالموافقة على كلمات ديوميديس، وقال أجاممنون للرسل: «قد سمعتم بآذان رءوسكم، رد الأغارقة، ومع ذلك فإننا سنمنحكم ما طلبتم من هُدنةٍ كي تستطيعوا فيها أن تدفنوا موتاكم.»

كانت الشمس تبزغ من البحر تُطارد الظلام الحالك من حقول بلاد طروادة، عندما التقى الأغارقة والطرواديون في سلام، وحملوا جثث الموتى، وأخذوا يدفنونها في أكوام هائلة، والدموع تنهمر غزيرة من مآقيهم.

أقام الإغريق لأنفسهم خندقًا عميقًا، وحائطًا مرتفعًا، وعندما جَنَّ الليلُ، وانتشرت عساكرُ الظلام في الفضاء، أولموا مأدبةً عظيمة، ولما وصلت إليهم بعضُ السفن من لمنوس Lemnos محملة بالخمر، أحضروا منها كمية طيبة، دفع البعض ثمنها لرجال لمنوس برنزًا، والبعض الآخر حديدًا، وبعضهم جلودًا وأبقارًا، والبعض أسرى.

استغرقت وليمةُ الإغريقِ الليلَ كله، كما أولم الطرواديون كذلك في طروادة … أما في أوليمبوس فقد دبَّر زوس خطة لهزيمة من أظهروا عدم الاهتمام به والخوف منه، واستمر هزيم رعوده يُجلجل في الفضاء كجرس الرحى، فيملأ قلوب المحتفلين بولائمهم رعبًا وهولًا، وارتجفوا وجلًا مما تدخره لهم الأيام من أهوال يشيب لها الطفل في عهد الرضاع.

وفي اليوم التالي عندما شقَّ الفجرُ بخنجره الفضيِّ حُجُبَ الظلام، جمع زوس حشد الآلهة، وهدَّد كل إله أو إلهة يجسر على مساعدة أي فريق من الأغارقة أو الطرواديين، بالعقاب الرادع وبئس المصير.

عندئذٍ قامت أثينا تخاطب أباها وتقول له: «أي زوس! أيُّها الأبُ العظيم، إننا لنرضخ لمشيئتك، ونطيع رغباتك، ولكن دعنا بحياتك ننصح الأغارقة حتى لا يبادوا عن بكرة أبيهم أمام قوة غضبك …»

فقال زوس: «ليكن لكِ ما تقولين يا بنيتي العزيزة.» ثم ابتسم لها؛ لأن ابنته الجميلة أثينا، كانت غالية مكرمة عند ملك الآلهة.

بعد ذلك اعتلى زوس في عدته الذهبيَّة، ظهر عربته الفخمة، وكان لجياده السريعة الأقدام البرنزية الحوافر، ذيول طويلة من الذهب، وكان زوس يلهب ظهورها بسوطه الذهبي، فكانت تومض في الفضاء كأنها البرق اللامع بين الأرض والسماء الزاخرة بالنجوم.

قاد زوس جياده إلى أعلى ذؤابات جبل إيدا، حيث جلس تُخفيه سحابةٌ قاتمةٌ عن الأبصار، وأخذ يراقب الإغريق والطرواديين كأنهم ألعوبته المحببة، وهم يتقاتلون في ساحة الوغى وسط السهل، على مسافة نائية منه.

كان الجيشان في صبيحة ذلك اليوم قد بكرا بالالتحام، فتزاحمت السنابك، والتقى الأقدام، وعلا الصياح والصليل، والصراخ والعويل. هذا يصيح من الألم والغضب، وذلك يصرخ فرحًا وانتصارًا. وكانت الأرض الطيبة تفيض بدماء القتلى من الرجال الشجعان، والمغاورة الأبطال. من مات منهم ومن يموتون.

ما إن انتصف النهار وعلت الشمس إلى خط الهاجرة، حتى استوى زوس على عرشه فوق الجبل، وأخرج ميزانه ذا الكفتين الذهبيَّتين البراقتين، وفيهما صنجتا الموت، إحداهما للأغارقة والأخرى للطرواديين، فهبطت كفةُ الإغريق ورجحت الكفةُ الأخرى؛ عندئذٍ أرسل زوس برقًا لامعًا في الفضاء، فزاد النهار وضوحًا، واستطاع الجيشان المتقاتلان أن يريا الربَّ العظيمَ وكفتيْ ميزانه، وامتلأت قلوب الإغريق بالخوف والوجل لأنهم رأوا الموت في كفَّتهم يرجح كفَّة الطرواديين.

لم يستطع أقوى الأغارقة الاحتفاظ بشجاعته بعد تلك اللحظة، وبعد أن علموا مصيرهم المنتظر، وما يخبئه لهم القدر من هلاك وفناء، ما عدا نسطور أكبر المحاربين سنًّا، فقد ظلَّ محتفظًا برباطة جأشه متمالكًا نفسه.

صوَّب باريس أحد سهامه إلى جواد في عربة نسطور فأرْدَاه قتيلًا، عندئذٍ قفز الرجل العجوز من عربته، وأخذ يَبرُدُ بسيفه جرارات العربة. وبينما هو منهمكٌ في تلك العملية، إذ اندفع هكتور بعربته في عنفٍ وسط الحشد، وكاد في هذه اللحظة أن يُقضَى على نسطور قضاءً مبرمًا، لو لم يلاحظ ديوميديس ما سيعقب ذلك من حدثٍ أليم.

صرخ ديوميديس صرخةً مدويةً، ونادى أوديسيوس قائلًا: «إلى أين تفرُّ كالجبان يا أوديسيوس؟ قِفْ هناك حتى تنقذ هذا الرجل العجوز من عدوه القوي!»

قال هذا بصوتٍ جهوريٍّ، ولكن أوديسيوس لم يسمعه، وأسرع في طريقه …

فلم يقف بجانب نسطور غير ديوميديس وحده، فلما وجد نفسه هو الوحيد الذي يمكنه مساعدة نسطور، وأن أوديسيوس لم يسمع نداءه، قال: «إن محاربين كثيرين أصغر مني يحاصرونني بشدة، إنك ضعيفٌ وسائقُ عربتك جبان، وجيادك بطيئة، فهيَّا إلى عربتي، أسرِعْ ولا تُطِل التفكير، وتأمَّل كيف تعدو جيادي التي أخذتها من أينياس … إننا سنقودها فورًا ضد هكتور كي يعرف قوة رمح ديوميديس.»

أسرع نسطور العجوز واعتلى عربة ديوميديس، وأمسك الأعنة بيديه، ثم ألهب ظهور الجياد بالسوط، فإذا بها تعدو كالريح حتى وصلت إلى هكتور، فقذف ديوميديس رمحه ... ولكن الرمح أخطأه، واستقر في صدرِ سائقِ عربته الشجاع، فخرَّ صريعًا يتخبط في دمائه على الأرض، وفزعت الجياد وكادت تجمح وتقلب العربة بمن فيها.

رأى زوس الهزيمة الشنعاء التي حاقت برجال طروادة، فحمل في يديه صاعقة، وقذف بها لتنفجر مشتعلة بشدة أمام جياد ديوميديس التي سرعان ما استولى عليها الذعر، واندفعت إلى الوراء في فوضى لا مثيل لها ...

عندئذٍ صاح نسطور قائلًا: «إن زوس نفسه يقاتل ضدك يا ديوميديس! ... هيَّا نلوذ بالفرار، فلا أحد قد أوتي من قوة الجسد، ما يبيح له الوقوف أمام زوس، أو مقاومة رغبته.»

فأجاب ديوميديس: «لقد نطقتَ بالصواب أيها الرجل العجوز، ولكنه يؤلمني ويحزُّ في قلبي أن أسمع يومًا ما أن هكتور يملأ شدقيه فخرًا ويقول: لقد فرَّ ديوميديس مدحورًا أمامي واعتصم بسفنه، وعندئذٍ يهون على نفسي أن تبتلعني الأرض قبل أن أسمع ذلك الكلام.»

فقال نسطور: «قد يصفك هكتور بالجبن والفرار، ولكن ما من أحدٍ من أبناء طروادة سيصدق قوله، ولا أحد من أرامل هؤلاء الرجال الذين قتلهم.»

في تلك اللحظة أدار نسطور خيوله على أعقابها، وأطلق لها العنانَ موليًا الأدبار، بينما كانت رماح وسهام الطرواديين تلاحقه كالمطر الغزير.

وكان صوت هكتور يدوي في الفضاء، فيعلو على جلبة القتال وهو يصيح قائلًا: «انظروا بطل الإغريق! ما عدتَ بطلًا بعد اليوم! لقد خبا ضوؤك وانكفأ سراجك! أيها البنت الضعيفة! أيها القزم المسكين!»

أصغى ديوميديس إلى تعبيرات هكتور، فنزلت في فؤاده نزول الصاعقة، وكاد الحزن يقضي عليه، ولكن لم تكن هناك جدوى من العودة ومحاولة قتله.

عندئذٍ أرسل زوس هزيم رعده ثلاث مرات من ذؤابات الجبل علامة على انتصار الطرواديين، ولتبث الخوف والهلع في قلوب الأغارقة.

فلما رأى هكتور ذلك، أهاب برجاله أن يملكوا زمام أنفسهم ورباطة جأشهم؛ لأن زوس العظيم محدث الرعد والبروق يقاتل معهم، ثم حثَّ جياده على التقدم إلى الأمام بسرعةٍ قائلًا: «هيَّا الآن إلى الأمام يا بايارد Bayard، ويا أبيض القدم، وأنت يا شعلة النار، ويا براق! لا تنسوا كيف اعتنت بأمركم أندروماخي، وكيف رعت أحوالكم! أسرعوا

إلى الأمام قدمًا حتى نستطيع أن نجرِّد نسطور العجوز من درعه الذهبيَّة، ونستولي على صدريَّة ديوميديس البديعة ذات الشهرة العالميَّة.»

سمعت الجياد كلام هكتور، فانطلقت بالعربة إلى الأمام، بينما تبعه الطرواديون يدفعون الأغارقة دفعًا، ويلجئونهم إلى الفرار ومسابقة الريح. وكادت سفن الإغريق تُحرق فتضع الحرب الطويلة الأمد أوزارها وتنتهي، لولا أن هيرا غرست في قلب أجاممنون أن يثير حفيظة الإغريق، ويجبرهم على القتال.

صاح أجاممنون في رجال الأغارقة صيحة ردَّدت أجواز الفضاء أصداءها فقال: «يا للعار ويا للشنار! ما بالكم أيها الإغريق الشجعان؟ ماذا دهاكم وما الذي حلَّ بكم؟ أذهب ريحكم وتعوَّضت القلوب من رعبها منكم الجرأة عليكم؟ ماذا حدث لمجدكم وفخركم؟ وماذا انتاب أبطالكم الهصورين وفرسانكم الغيورين وصناديدكم المبرزين؟ أتحيق بكم الهزيمة بهذه السهولة؟ كلا، وألف مرة كلا ... إن الأغارقة الذين دوَّخوا العالم وفتحوا الأمصار، لا يزالون على عهد جميع الأمم بهم.»

ومن ثمَّ توسل إلى زوس العظيم أن يتنازل فيمنح الإغريق في هذه الآونة نصرًا من عنده.

استمع زوس إلى تضرعات أجاممنون، واستجاب لتوسلاته، فردَّ عليه بما يطمئن نفسه، ويدخل السرور على فؤاده، فرأوا في السماء نسرًا ضخمًا يحمل بين مخالبه غزالًا، حتى وصل إلى مذبح زوس، فأطلق الظبي من بين براثنه فسقط فوق المذبح.

طرب الأغارقة عند رؤيتهم هذا المشهد العظيم، وفسروه بأن زوس، أبا الآلهة والبشر، قد رضي عنهم، وأن الظفر سيكون حليفهم في القتال، فذهبوا إلى ميدان الحرب بنشاطٍ متجددٍ وروحٍ معنويةٍ قويَّة، وكلهم على يقينٍ من أنهم سيُنزلون بعدوِّهم هزيمةً نكراء.

التحم الجيشان من جديد، فكان المحارب يقتل بطلًا، والفارس يجندل المغاوير ... وكان تيوكر Teucer القواس العتيد، يحتمي بدرع أجاكس العظيمة، ويرسل سهامه السريعة الواحد تلو الآخر، فتجر وراءها الموت الزؤام لمن تصيبه وتستقر في أحشائه ... بَيْدَ أنه عبثًا كان يصوب سهامه ضد هكتور، إذ كلما كان يشدُّ قوسه ويرسل سهمًا نحو ذلك الرجل، كان السهم يصيب محاربًا غيره حتى ذهل لعدم استطاعته إصابة من تاقت نفسُه إلى هلاكه والقضاء عليه.

أصاب واحدٌ من السهام صدرَ سائق عربة هكتور، فسقط ميتًا من فوق العربة؛ عندئذٍ امتلأ قلب هكتور غيظًا وحنقًا، فقفز من العربة محدثًا صوتًا، وأمسك في يديه

صخرةً ذات نتوءات، وهجم على تيوكر ليهوي بها على أمِّ رأسه فتكون القاضية ... وكان تيوكر في هذه اللحظة بالذات قد شدَّ وتر قوسه ليطلق منها سهمًا، فجاءت ضربة هكتور في عظمة الترقوة، فانصدعت القوس وسقطت من يد تيوكر التي فقدت الإحساس، فخر ساجدًا على ركبتيه، وكاد يلقى حتفه، لولا أن أجاكس أسرع إلى نجدته، فوقف بجانبه ووقاه بدرعه، إلى أن حمله اثنان من زملائه إلى السفن وهو يئنُّ من شدة الألم.

عاد زوس فنفث الشجاعة في رجال طروادة، فإذا بهم يدفعون الإغريق أمامهم في فوضى واضطراب يتحدث عنهما الركبان.

رأت هيرا وأثينا محنة الإغريق فأشفقتا عليهم، وكادتا تهبطان من أوليمبوس لمعونتهم، لو لم يرسل زوس إليهما تحذيرًا صارمًا، عما ينتظرهما من مصيرٍ إن فكرتا في الذهاب إلى ساحة القتال غير مؤتمرتين بأمره ... قائلًا: «ستريان غدًا بعيونكما شرورًا أعظم من هذه، ونكبات أشد هولًا من تلك، ولن يكف هكتور عن القتل إلا إذا عاد أشيل السريع القدمين إلى نجدة الأغارقة والدفاع عنهم، حيث يرقد باتروكلوس الشجاع ميتًا. هذا هو حكم السماء، ولن يقف أحد كائنًا من كان ضد تنفيذ هذا الحكم.»

هبط الليلُ البهيمُ بجحافله، وأسدلت على الكون قبة سوداء، فامتلأ قلب الطرواديين غيظًا، بينما عمَّ السرورُ أفئدةَ الإغريق لحصولهم على فترة السكون والراحة.

اتَّكأ هكتور على رمحه البرنزي، وخاطب الطرواديين قائلًا: «أيُّها الطرواديون، اسمعوا وعوا، لقد فكَّرتُ في يومنا هذا أن أُبيدَ الإغريقَ وجميعَ جيوشهم، وأن نعود أدراجنا إلى طروادتنا، ولكن الليل أسرع بالمجيء قبل الوقت الذي كنت أتوقعه، فيجب علينا إذن أن نأخذ قسطنا من الراحة أثناء الليل، فنتناول الطعام ونقدِّم العلف لجيادنا، ودعونا نوقد النيران طوال الليل حتى لا يحاول الإغريق أن يركبوا البحر تحت جنح الظلام ويهربوا ... فليعلن الرسل أنه يجب على الصبية والعجائز أن يحرسوا شرفات طروادة، وعلى كل امرأةٍ أن تشعل نارًا عظيمةً في بيتها خشية أن يدبر الأغارقة شَرَكًا لدخول المدينة في أثناء وجودنا هنا ... وعندما يلمع الفجر في السماء، سنقاتل بالقرب من السفن، وسنرى هل سيتقهقر ديوميديس من الشاطئ إلى حوائط طروادة، أم سأقتله برمحي؟!»

هكذا تكلم هكتور وسط جموع الطرواديين الذين فكوا قيود خيولهم، وقدموا لها العلف، وجلبوا وقودًا من المدينة لإيقاد النيران.

ظلَّ الطرواديون طوال الليل جالسين في ساحة الوغى تحدوهم الآمال الجسام، بينما كانت ألسنة نيرانهم المتأججة تتراقص في الفضاء فتصل إلى عنان السماء. وكما

يسطع القمر بنوره الفضيِّ في الليلة الراكدة الهواء، وتمتدُّ السماء فسيحةً شاسعةً إلى ما لا نهاية، فترى جميع النجوم، هكذا كانت أضواء النيران المتلألئة في السهل الممتد أمام طروادة. فكانت آلافُ النيران تشتعل هنا وهناك، وكان يجلس حول كل كومة نارٍ خمسون رجلًا يُغذُّونها بالوقود، وإلى جوار العربات وقفت الخيول تلوك الشعير في انتظار مجيء الفجر.

الباب التاسع

وفد الرسل إلى أشيل

بينما جلس الطرواديون إلى جوار نيران الحراسة، كانت قلوبُ الأغارقة مفعمةً بالأسى ولا سيما قلب أجاممنون، سيدهم الأكبر.

أرسل أجاممنون رسله على عجل، ليدعوا كل إغريقيٍّ على انفراد، إلى عقد اجتماع، دون إحداث أي صوتٍ ينم عنهم أو الصياح بصوتٍ مرتفع.

لبَّى الرجال نداءَ سيدهم، وجلسوا صامتين في حزنٍ وغمٍّ كأن على رءوسهم الطير، ولما نهض أجاممنون للكلام، انهمرت الدموع غزيرة من مآقيه، وانحدرت على خدَّيه كما تسيل المياه الفاترة من مجرى جبليٍّ خلال الأخاديد التي لم تنفذ إليها أشعة الشمس قط.

قال أجاممنون: «أيُّها الأصدقاء، قادة الإغريق وسادتهم وضباطهم، ما أقسى قلب زوس، وما أسوأ معاملته لي، قد وعدنا بالظفر، ولكنه جلب علينا العار الذي ما بعده عار. لم يبقَ أمامنا إلا أن نهرب بسفننا إلى وطننا فلن تقع طروادة في أيدينا أبدًا.»

هذا ما قاله أجاممنون لمواطنيه، ولكن المحاربين لزموا الصمت طويلًا، وهم في حزنٍ عميقٍ يكاد يقطع نياط قلوبهم ويهزُّ كيانهم … غير أن ديوميديس قطع هذا الصمت بقوله: «لقد دعوتني رعديدًا، يا أجاممنون، ووصفتني بالجبن، ولو كنتُ كقولك لعرفني الأغارقة، ولكنهم يعلمون جيدًا من أنا وما صفتي في القتال، وقد شهدوا بسالتي وإقدامي صغيرًا وكبيرًا. لقد أعطاك زوس النفوذ على سائر رجال الإغريق، أما الشجاعة التي هي أعظم القوى جميعها، فقد حرمك منها. هل تظن أن الأغارقة جبناء وضعفاء مثلك؟ إذا كنتَ تريد الفرار كما قررت، فاهرب إذن، إن سفنك تنتظرك في البحر، أما نحن فسنمكث هنا حتى تنهار أمامنا مدينة طروادة، وتصبح أنقاضًا. ولئن رغب كل إغريقي هنا في الفرار معك، فليذهبوا ويفروا ويهربوا، أما أنا وصديقي سثينيلوس Sthenelus فسنبقى

هنا إلى أن تصبح طروادة لنا. لقد أرسلتنا الآلهة إلى هذا المكان، وهي التي ستمنحنا النصر.»

بعد ذلك نهض نسطور العجوز، وتكلم في الحشد المجتمع قائلًا: «حقًّا إنك لشديد البأس صعب المراس في القتال يا ديوميديس، ولقد أصبت في كلامك وأجدت كل الإجادة، ولكنك لا تزال صغيرًا كأصغر أحفادي ... وأرجو أن تدَعَ كل من يُصغِي إليَّ — بما فيهم أجاممنون — يسمع قولي، ولا يعارضني أحد منهم؛ نظرًا لكبر سني، ولأنني حضرت حروبًا كثيرةً في عدةِ أزمنةٍ ماضيةٍ غابرة. فمن يُحب الكفاح يجب أن يكون بلا عشيرة، بلا قوانين، وبلا بيت. فهيَّا أسرعوا إذن ودعونا جميعًا نتناول الطعام، ونتأكد من أن الحراس يقومون بواجبهم في الحراسة على طول الخندق العميق المحيط بالحائط من الخارج ... ففي هذه الليلة إما أن يأتينا النصر المبين أو الهزيمة التي لا تقوم لنا من بعدها قائمة.»

أقام أجاممنون وليمةً على عَجَل، لم تستغرق وقتًا طويلًا. وعندما انتهى القوم من تلك المأدبة نهض نسطور ثانية، وتكلم فيهم قائلًا: «أي أجاممنون العظيم، لقد جعلك زوس ملكًا على جميع الأمم قاطبة ... ومن ثمَّ كان من واجبك أن تصغي إلى كل ناصحٍ يودُّ لك الخير في حكم رعاياك، فإن النصح أجدى عليك من كثير عقلك ... لقد حاولتُ بقلبٍ صادقٍ مخلصٍ أن أمنعك من اغتصاب بريسايس الفاتنة من خيمة أشيل، في ذلك اليوم الذي أغضبت فيه أشجع جميع المحاربين. فلنحاول الآن إرضاءه، ونحثه بالهدايا وبمعسول الألفاظ على العودة إلى صفوفنا، والقتال من أجل بلاد الإغريق مرة أخرى.»

فأجاب أجاممنون: «بلى، حقًّا ما كان أحمقني يوم استسلمت لغضبي وتماديت في عنادي، وقد علمتُ الآن خطئي، وإنه ليسرُّني ويبهج نفسي أن أصلح ذات البين مع أشيل، حبيب زوس ... سأرسل إليه هدايا ثمينة طيبة، هدايا من الذهب الخالص لا تقدر بثمن، وجيادًا سريعة ليس لها نظير، وسبع سبايا فاتناتٍ ماهراتٍ في الحياكة، ولسوف تعود إليه من جديد بريسايس الحسناء الجميلة. حتى إذا ما هبَّ إلى معونتنا وتغلبنا على أعدائنا واستولينا على طروادة فإن أثمن الغنائم ستكون من نصيبه، ولسوف أزوجه من أجمل بناتي، وأهبه كثيرًا من الأراضي والمدن، وأنصِّبه حاكمًا على عدة شعوب، وملكًا على أمم كثيرة. هذه ستكون هديتي له ...»

ما إن أتم أجاممنون حديثه، حتى أسرعوا في اختيار الرسل الذين سيذهبون إلى أشيل بالهدايا ... وكانوا فوينكس Phoenix، وهو محاربٌ محببٌ إلى زوس، والعملاق

أجاكس، والبطل أوديسيوس الكثير الحيل، يتقدمهم حاجبان ليخبرا أشيل بقدوم الرسل لطلب معونته …

سار وفدُ الرسل بحذاء الشاطئ الصاخب، وهم يتضرعون إلى زوس أن يكلل مسعاهم بالنجاح، فلما وصلوا إلى سفن وخيام أشيل، وجدوه جالسًا يلعب على قيثارته، وكانت قيثارة جميلةً صنعتها يدٌ ماهرةٌ، ومكسوة بإطارٍ من الفضة النقيَّة، وكانت تنبعث منها أنغام حلوة شجيَّة، بينما كان أشيل ينشد ألحان أعمال الأبطال القدماء الرائعة.

كان باتروكلوس صديق أشيل الحميم يجلس إلى جواره، فلما رأيا أوديسيوس يتقدم نحوهما، قفز أشيل من دهشته، وانتصب واقفًا والقيثارة لا تزال في يده، بينما نهض باتروكلوس يحيي القادمين. ومدَّ أشيل يده قائلًا: «مرحبًا بكم، لا شكَّ أن القادمين أصدقاء … إنكم لأعزُّ الإغريق طُرًّا في ناظري مهما كنت في حموة الغضب.»

ثم قادهم إلى داخل خيمته، وأجلسهم على أرائك مكسوة بمنسوج أرجواني ملكي، ثم التفت إلى باتروكلوس وقال: «أحضر إلينا أكبر طاسي وخير خموري؛ لأنه ليس عندي أعز من هؤلاء الأصدقاء الذين شرفوني بجلوسهم معي الآن.»

وهكذا أعدَّ أشيل وليمةً فاخرة، ضمَّت أعظمَ الخمورِ العتيقة، وأطيبَ الأطعمةِ الشهيَّة من مختلف الأنواع وأغلاها قيمة.

فلما انتهَوْا من طعامهم، قصَّ أوديسيوس العظيم على مسامع أشيل البطل أنباء القتال، وما لاقاه الأغارقة من آلامٍ مبرحة، وأطلعه على الهدايا الملكيَّة التي بعث بها أجاممنون، وحمل إليه توسلات الإغريق وملكهم لأن يحضر بطلهم العظيم أشيل، ويُحارب من أجلهم مرةً ثانية …

عندئذٍ أجاب أشيل: «أي أوديسيوس العظيم، إني لأمقت الرجل الذي ينطق لسانه بغير ما يُخفيه قلبُه، مقتي للموت البغيض. وخيرُ الكلام ما قلَّ ودلَّ. لقد جاهدت ما وسعني الجهد، وحاربت بكل قوايَ من أجل أجاممنون، ومع ذلك فماذا جنيت من وراء كل ذلك؟ وإنني لست ممن تغريهم الهدايا والزلفى بعد الإهانة والاحتقار. فلكم أمقت هدايا أجاممنون. إني أستطيع الحصول على الثروة والسلطان بدون أيِّ مساعدةٍ من أجاممنون … ومع ذلك فإنني على يقينٍ — كما أخبرتني والدتي ثيتيس Thetis — أن الموت يدنو مني بسرعة، فدع الأغارقة يطلبون المعونة من غيري، ويبحثون عنها في مكان آخر غير هذا … لأن غضبي شديدٌ، ولن تفوزوا بأية معونةٍ مني.»

وما إن أتم أشيل كلامه هذا حتى قال أجاكس: «هيَّا نرحل من هنا يا أوديسيوس، فقد فشلنا في سفارتنا، ومع أننا نحمل أخبارًا سيئة، إلا أنه يجب علينا أن نحملها سريعًا إلى الجيش الإغريقي. ما أقساك يا أشيل! وما أغلظ كبدك! إن حقدك على أجاممنون، وغضبك الشديد، قد جعلاك لا تقيم وزنًا لحبِّكَ أصدقاءكَ، وحبِّكَ وطنكَ العزيز ...»

فأجاب أشيل: «أيُّها الشجاع أجاكس، أرجو أن تنقل عني هذه الرسالة إلى أجاممنون المتغطرس: «إنه إلى أن يأتي اليوم الذي يصل فيه الطرواديون إلى سفني وأكواخي، ويحرقونها بالنيران، فإنني لن أرفع إصبعًا واحدةً من أجل بلاد الإغريق ... ولكنه في ذلك اليوم، حقًّا، ستوقف قوة الطرواديين».»

رجع أوديسيوس وأجاكس والآخرون أدراجهم بخُفَّيْ حُنَيْن، والحزنُ يملأُ أفئدتَهم ويقطع نياطَ قلوبِهم، حتى بلغوا جيش الأغارقة، فأدلوا إليهم برسالة أشيل.

استمع المحاربون إلى الرسالة في صمتٍ مطبق، حتى انتهى الرسل من نقلها، ثم قال ديوميديس: «يجب على أشيل إذن أن ينتظر وقته، فعندما يثور قلبُه من جديدٍ سيقاتل ... والآن دعونا نتناول اللحم ونشرب وننام، حتى إذا ما لاح الفجر الوردي الأنامل، نكون قد أخذنا قسطنا من الراحة، واستعدنا قوانا للقتال، فنقاتل بشجاعةٍ من أجل مليكنا أجاممنون.»

الباب العاشر

جياد ريسوس البيضاء

في تلك الليلة اللَّيْلَاء استسلم القادة الإغريق إلى سباتٍ عميقٍ، وناموا ملءَ جفونِهم، ولكن هناك شخصًا واحدًا لم يغمض له جفن، ولم يطرق الكرى بابه، بل ظلَّ طوال ساعات الدجى مؤرقًا مسهدًا، كأنه موكلٌ بعَدِّ النجوم. ذلك هو أجاممنون الذي كانت تأتي إلى آذانه من معسكر الأعداء أصوات المزامير والناي، وضحكات الرجال الطرواديين وهم يتناولون طعامهم، ويمرحون على الأضواء الحمراء المنبعثة من النيران المتأججة في معسكرهم. فكان أجاممنون إذا شخص بناظره نحو البحر ورأى سفن الإغريق النيام، ثقل قلبه بين جنبيه، وأرسل أناته العميقة، وتأوهاته العالية، منبئة عما ينطوي عليه قلبه من حزنٍ ما بعده حزن، وكمدٍ منقطع النظير …

بقي أجاممنون على تلك الحال وقتًا حسبه دهرًا، ولسان حاله يقول:

ألا أيُّها الليل الطويل ألا انجلِي بصبح وما الإصباح منك بأمثل
فيا لكَ من ليل كأن نجومه بكل مغار الفَتْل شُدَّت بيذبل

فلما استبدَّ به الأرق، ثبَّت صندله في قدميه، وطوَّح فوق كتفيه عباءته المشهورة المصنوعة من جلدٍ أسدٍ ضخم، ثم أمسك برمحه، وراح يضرب في ديجور الظلام حتى وصل إلى نسطور الحكيم طالبًا استشارته.

لم يكن أجاممنون هو المؤرق وحده، بل إن أخاه مينيلاوس، لم يذق للنوم طعمًا كذلك، فقد كانت الوساوس والأفكار تنتابه وتسيطر على جنانه؛ خشية أن يحيق بالأغارقة الأذى ويُنْكَبوا بالضربة القاضية، وقد تجشموا المتاعب وركبوا الأخطار، وعبروا البحار الشاسعة؛ للقتال من أجله في بلاد طروادة.

أجاممنون تأتي إلى آذانه من معسكر الأعداء أصوات المزامير والناي وضحكات الرجال الطرواديين وهم يتناولون طعامهم.

وضع مينيلاوس على رأسه خوذته النحاسيَّة، وألقى على كتفيه العريضين جلد نمر أرقط، وحمل رمحه الثقيل اللامع في يده، وذهب يشقُّ طريقه وسط فحمة الدياجي باحثًا عن أخيه.

وهناك بالقرب من السفن وجده متدثرًا بعدته الحربيَّة، فابتدره بالسؤال قائلًا: «ما ألجأك إلى التسلح هكذا يا أخي العزيز؟ هل أزمعت إرسال أحدٍ من رفقائنا للتجسس على الطرواديين؟ أخشى ألا يكون بيننا من عنده الشجاعة الكافية للتسلل وحده تحت جنح الليل، للقيام بمثل هذا العمل الخطير الذي يتطلب جرأةً وجسارة.»

عندئذٍ أمر أجاممنون أخاه أن يذهب ويوقظ رؤساء جيشه، ويدعوهم إلى اجتماع عاجل للتشاور فيما يجب عمله، بينما ذهب هو بنفسه لإيقاظ نسطور، أكبر جميع المحاربين سنًّا وأوفرهم حكمة.

وبينما هما يجوسان خلال الجيش، وجدا الحراس جالسين في يقظة تامة، حاملين أسلحتهم كأنهم كلاب تحرس حظائر الماشية، وسط بقعة منعزلة بين التلال، وتصغي إلى زئير الأسود وعواء الذئاب من داخل الغابات.

ما إن أبصرهما نسطور العجوز حتى سُرَّ برؤيتهما أيما سرورٍ وقال: «حتى أنتما تحرسان وتراقبان يا ولدَيَّ العزيزين، خشية أن نسمح لأعدائنا بأخذنا على غرَّة والانتصار علينا!»

لبَّى القادةُ نداءَ مليكهم، فاجتمعوا في العراء خلف الخندق العميق الذي حفروه من قبل، وجلسوا يتبادلون الآراء ويتشاورون فيما بينهم، فتحدث إليهم حكيمهم نسطور قائلًا:

«أيُّها الرفاق الأعزَّاء، والمحاربون الأجلاء، هل يوجد بينكم من لا يعرف الخوفَ قلبُه، كي يتسلل بمفرده إلى معسكر الطرواديين هذه الليلة، ويستطلع أمرهم، ويعرف ماذا أعدوا من خطط للمعركة القادمة؟ ما أعظم الشهرة التي سيتمتع بها هذا البطل! وما أثمن المكافأة التي سيُمنحها!»

فأجاب ديوميديس، ذو صيحة الحرب العالية: «سأذهب عن طيب خاطرٍ وقلبٍ رضي، يا نسطور، ويا حبذا لو صحبني رجلٌ آخرُ حتى تحدونا طمأنينة أكثر، وشجاعةٌ أعظم.»

تاق الكثيرون إلى مرافقة ديوميديس، ولكن أجاممنون تحدث قائلًا: «أيْ ديوميديس، يا محط غبطة قلبي، لا شكَّ في أنه من حقك أن تختار رفيقك في هذه المهمة الخطيرة.»

فأجاب ديوميديس: «لو كان لي أن أختار رفيقي حقًّا، لاخترت أوديسيوس؛ إذ برفقته نستطيع اختراق النيران المستعرة والعودة سالمين.»

فقال أوديسيوس: «لا تبالغ في الإطراء والمديح، يا ديوميديس فإنني لا أستحق كل ذلك الثناء، دعْ عنك هذا وهيَّا نذهب فإن الليل كاد ينصرم، وأوشكت النجوم تختفي، والفجر تلوح تباشيره في الأفق.»

ارتدي البطلان عدتيهما الحربيَّتين، وأقلعا كأسدين هصورين يبحثان عن فريستهما، وكانا يطئان جثثَ القتلى أثناء سيرهما، وفي ظلام الليل سمعا صياح البجعة، فعلما أنه بشرى من الآلهة وعلامة على وعدهم لهما بالتوفيق في مهمتهما والانتصار.

وفي نفس الوقت كان الطرواديون يعقدون اجتماعًا في معسكرهم، حيث وقف هكتور الشجاع يعد بالهدايا من يأنس في نفسه الشجاعة الكافية للتجسُّس على الأغارقة، ومعرفة مجرى الأمور عندهم، وما هي خطط أجاممنون ورجاله، وحالة سفنه وجياده ومحاربيه.

نهض دولون Dolon العدَّاء السريع، والرجل السيئ الحظ، صاحب الأموال الطائلة والثراء العريض من الذهب والبرنز، وقال: «سأذهب إلى السفن السريعة الإبحار كجاسوس، ولكنني أشترط أن تكون مكافأتي على هذا العمل، جياد أشيل السريعة وعربته البرنزية.»

فأقسم هكتور قائلًا: «لن يعتليَ ظَهْرَ هذه الجياد طروادي غيرك ...»

عندئذٍ أخذ دولون قوسه، وألقى فوق كتفيه جلد ذئبٍ كبير، ووضع على رأسه خوذة من جلد ابن آوى، وأمسك رمحه بيده، وظعن ميممًا شطر شاطئ البحر إلى سفن الإغريق.

سمع أوديسيوس وسط الظلام الحالك، وقع أقدام دولون فقال: «حِذْرك يا ديوميديس، فهنا يأتي شخصٌ ما، ولست أدري على التحقيق أهو جاسوس طروادي، أو لص من لصوص الموتى ... دعه يمر، ثم نهجم عليه بعد ذلك ونأسره.»

قال ذلك وانتحى مع ديوميديس إلى ناحية بعيدًا عن الطريق، ورقدا وسط جثث القتلى في قلب السهل، ولزما الصمتَ والثباتَ كمن يرقدون إلى جوارهم ...

ما إن ابتعد دولون مسافةً غير طويلة، حتى نهض أوديسيوس وديوميديس وأسرعا خلفه، فلما سمعهما توقف عن السير؛ ظنًّا منه أنهما رسولان من هكتور قد جاءا ليأمراه بالعودة ... فلما صارا على بعد رمحٍ أو أقل، عرف أنهما عدوان، فأطلق العنان لساقيه وأخذ يعدو أمامهما هاربًا.

ولكن البطلين طارداه كما تطارد كلاب الصيد أرنبًا بريًّا أو ظبيًا، فلما أوشكا على الوصول إلى الخندق الذي وُضع فيه الحراس، صاح فيه ديوميديس قائلًا: «مكانَك يا هذا، وإلا فإن رمحي سيرديك قتيلًا على الأرض!»

وفي هذه اللحظة قذفه ديوميديس برمحه دون أي رغبةٍ في إصابته، فمرق السهم من فوق كتفه الأيمن، ودُفنت قمته الحادَّة في الأرض أمامه. فتسمر دولون في مكانه وقد اخضَّر لونُ وجهه خوفًا وهلعًا، واصطكت أسنانُه رجفةً وذعرًا، فلحق به أوديسيوس وديوميديس وأمسكا به.

وجد دولون أنه قد وقع في كمين، فارتجف من قمة رأسه إلى أخْمص قدمه، وارتعدت فرائصه ارتعاد المقرور وسط الزمهرير، فأخذ يتوسل إلى آسريه أن يُبقيا على حياته، أو يطلقا سراحه نظير فدية كبيرة من الذهب والنحاس والحديد ... وكان يتضرع إليهما والدموع تنهمر من عينيه، وهو يبكي كالطفل الصغير.

فقال له أوديسيوس: «لا تخف ما دمت تخبرنا صادقًا عن سبب مجيئك هكذا في دجى الليل البهيم إلى معسكر أعدائك.»

شرع دولون الجبان يقص أمره وهو ينتفض، ساردًا على مسامع أوديسيوس وديوميديس، جميع ما طلبه منه هكتور ... ولما أمره البطلان أن يخبرهما عن الكيفية التي تكمن بها القوات الطروادية، وعن أنجع السبل للتسلل إلى داخل المعسكر، أجاب: «في أقصى بقعة من رجال طروادة يعسكر التراقيون Thracians الذين يحكمهم الملك ريسوس، ذلك الملك المزهو بنفسه، والذي عدته الحربيَّة الذهبيَّة، وعربته المصنوعة من العسجد الخالص واللجين الصافي، تليقان بإله ... كما أنه يملك أجمل جياد رآها البشر، فهي عظيمة القوة، سامقة الارتفاع، أنصع بياضًا من الثلج، وتفوق الريح في سرعتها.»

كان أوديسيوس وديوميديس يصغيان في شوقٍ عظيمٍ إلى حديث ذلك الجبان الرعديد، وما كاد ينتهي من حديثه، ويتوسل إليهما أن يأخذاه أسيرًا إلى سفنهما أو يطلقا سراحه، حتى نظر إليه ديوميديس نظرةً صارمةً عابسةً وقال: «أخبارك طيبة يا دولون، ولكنك لن تلعب بعد الآن دور الجاسوس، كما أنك لن تقاتل مطلقًا ضدَّ رجالِ الإغريق.»

أتم ديوميديس تلك الكلمات ثم رفع سيفه البتار، وقبل أن يتمكن دولون من طلب الرحمة، كان قد أهوى به على رأس هذا الجبان، فأطاح رأسه عن جسده، فسقط يتدحرج في التراب حتى وصل إلى أقدام ديوميديس. أما خوذته المصنوعة من جلد ابن آوى وجلد الذئب القاتم، ورمحه وقوسه، فقد أخذها أوديسيوس وديوميديس، وحملاها بعيدًا ليقدماها قربانًا للربَّة أثينا، فوضعاها فوق أكمة من نبات الطرفاء، وأقاما فوقها علامة من القصبات الطويلة وأغصان الطرفاء، حتى لا يخطئا المكان عند عودتهما ثانية قبل الفجر.

أسرع البطلان عبر السهل حتى وصلا إلى معسكر التراقيين، فوجدا الرجال يغطون في نومٍ عميقٍ وقد علا شخيرُهم ووضع كلُّ واحدٍ منهم أسلحته إلى جواره، بينما كان يقف جواده قريبًا منه.

كان الملك ريسوس راقدًا وسط رجاله ينام ملء جفونه، بينما كانت جياده البيضاء مربوطة في عربته المصنوعة من الذهب والفضة.

همس أوديسيوس إلى صديقه قائلًا: «حذار من إحداث أي صوت، فها هو ذا الرجل، وها هي الجياد التي أخبرنا عنها دولون.»

وفي الحال أعمل ديوميديس التقتيل في المحاربين النائمين كأنه أسدٌ هائجٌ ينتقم من وحوش انتهكت حرمة عرينه، فكان يقتل التراقيين واحدًا تلو الآخر، يضرب بسيفه ذات اليمين وذات الشمال، حتى تخضبت الأرض بدماء القتلى وانبعث أنينُ الموتى فظيعًا مروعًا. فلما بلغ عدد قتلاه اثني عشر محاربًا، عمل أوديسيوس على تنحيتهم إلى جانب ليفسح طريقًا لجياد ريسوس البيضاء؛ لأنه خاف أن يستوليَ عليها الفزعُ وهي تطأ جثثَ القتلى بأرجلها في ظلمة الليل الحالكة.

كان الملك ريسوس هو الثالث عشر في عداد ضحايا ديوميديس في تلك الليلة، فمن جراء حلمٍ شريرٍ جذب نفَسًا عميقًا بسرعة، ولكنه قبل أن يستيقظ من النوم كان سيف ديوميديس قد أجهز عليه وأطاح برأسه، عندئذٍ قاد أوديسيوس الجياد خارج المعسكر، ضاربًا إيَّاها بقوسه حيث لم يكن معه وقتئذٍ سوط، وصار يقودها حتى خرج بها بعيدًا عن المعسكر.

صفَّر أوديسيوس لديوميديس؛ إشارة منه بالكف عن التقتيل ومتابعته بغنيمتهما الملكيَّة. ومع ذلك تلكَّأ ديوميديس لأنه كان منهمكًا في قتل التراقيين حتى نسي نفسه، ونسي أن الليل كاد يجرُّ طرف ذيله ويُفسح مجالًا للصباح، وكان ديوميديس يُفكِّر هل يسحب معه العربة أيضًا أو يقتل مزيدًا من التراقيين ... وبينما هو في تفكيره أقبلت إليه الربَّة أثينا وقالت له: «عُدْ إلى السفن يا ديوميديس خشية أن يوقظ أحد الآلهة الطرواديين، وعندئذٍ تجد نفسك مضطرًّا إلى الفرار أمامهم.»

لقد كانت أثينا على حقٍّ فيما قالت؛ إذ في تلك اللحظة بالذات كان أبولو يوقظ أحد أقارب ريسوس، فرأى — وهو يصيح بشدة — الموتى ومن يعانون سكرات الموت، وعرف أن جياد الملك قد سرقت من المعسكر.

بيد أنه سرعان ما قفز ديوميديس وأوديسيوس فوق ظهور الجياد البيضاء السريعة العدو، وانطلقا في الظلام عائدين إلى السفن.

وصل البطلان إلى دغل الطرفاء حيث كانا قد تركا أسلابهما من دولون، فقفز ديوميديس في سرعة البرق الخاطف إلى الأرض، وأمسك بالأسلاب، ثم اعتلى على عَجل

ظهر جواده، وانطلق يعدو كالمجنون في رفقة زميله أوديسيوس، يشقان طريقهما إلى معسكر الأغارقة، وهما يلهبان ظهور الجياد بلا رحمةٍ ولا هوادة.

كان نسطور العجوز أول من سمع وقع حوافر الخيل وهي تركض بسرعة، فهبَّ مع فئةٍ من قادة الإغريق لاستقبال ديوميديس وأوديسيوس.

ألجم الجاسوسان الجريئان جيادهما وترجلا في خفةٍ ونشاط، فاستقبلهما زملاؤهما الإغريق استقبال الفاتحين الظافرين، وأخذوا يُطرونهم بأعذب الألفاظ، ويخلعون عليهم أنبل الألقاب. وعلا الهتاف والتصفيق، وامتلأ الجوُّ بعبارات التحيات الحارة.

أخذ أوديسيوس يقصُّ على مسامع قادة الإغريق قصة مصرع رجال تراقيا على يد ديوميديس، وسرقة جياد ريسوس التي يتوق أعظم الأبطال وأقوى الملوك إلى اقتنائها، وكان يقهقه بصوت مرتفع أثناء حديثه لهم، ثم قاد الجياد البيضاء إلى داخل الخندق، وعقلها إلى جانب جياد ديوميديس الأخرى.

بعد ذلك خلع البطلان ملابسهما، وغطسا في البحر، وأخذا يزيلان ما علق بجسديهما أثناء تلك المخاطرة، من العرق والتراب. وكان قلباهما مفعمين بالغبطة والسرور لنجاحهما في تلك المهمة واستطلاع أسرار الطرواديين أعدائهم. وبعد ذلك جلسا يتناولان طعام العشاء، وسكبا كثيرًا من الخمر اللذيذ كالعسل عطية للربَّة أثينا.

أما في معسكر الطرواديين، فقد دبَّ الهرجُ والمرج، وسادت الفوضى واختلط الحابلُ بالنابل، وهبَّ المحاربون من نومهم مذعورين، بينما اعترى الخجل والعار من كان متيقظًا من أبطالهم، وكانت صيحاتُ البكاء والنحيب تتصاعد إلى أجواز الفضاء، فيتردد صداها في كل مكان. وعمَّ الحزنُ والأسى لما حدث في الثلث الأخير من فترة الحراسة الليليَّة.

الباب الحادي عشر

معركة السَّهل

تقهقرت جحافلُ الظلام مولِّية الأدبار، وأقبل الفجرُ الفضيُّ يهتك أستارَ الليل، ويُبدد جيوش الدجى ليشهد من جديد معركة طاحنة، أقبل فيها الفريقان وأدبرا، وتقدما وتقهقرا. كانت تحتدم تارة فتعرك الرجال عرك الرحى بثفالها، وتفتر طورًا فيخبو سعيرها. غير أنه تمت في ذلك اليوم أعمال كلها بطولة وإقدام.

قاتل أجاممنون في شجاعة فذة وبطولة ما بعدها بطولة، ولكن ماذا تجدي الشجاعة والبطولة وقد كانت الآلهة تقاتل ضده، فكان كمن يضرب في حديدٍ بارد، ولكنه رغم ذلك ظلَّ يُناضل بعنف ويحارب بشدةٍ حتى انتصف النهار، فاضطر هو وكثيرٌ من المحاربين الشجعان الأغارقة، ممن أثخنهم العدو — بمساعدة الآلهة — بجراح بالغة، أن يتركوا ساحة القتال …

أصاب سهم من قوس باريس، ماخاون Machaon طبيب الإغريق النطاسي، فاستولى الذعرُ على الأغارقة خشية أن يموت من كان يُضَمِّد جراحهم في القتال.

حمل نسطور العجوز ماخاون ووضعه في عربته، وألهب ظهور جياده لتسرع بالعودة إلى حظائرها بالقرب من الساحل.

وفي تلك الأثناء كان أشيل واقفًا إلى جوار مؤخر سفينته يراقب سير المعركة من بعيد، وكان قد حثَّ صديقه الحميم، ورفيقه العزيز باتروكلوس بالإسراع إلى خيمة نسطور لمعرفة أنباء المعركة، وليسأل عن اسم المحارب الذي أصيب وحضر به نسطور إلى خيمته.

فأجاب نسطور بتهكمٍ قائلًا: «وماذا يهم أشيل إن عرف أي أبناء الإغريق يرقد جريحًا الآن؟ إن رؤساء كثيرين من قادة الإغريق قد سالت دماؤهم في هذا اليوم … ومع ذلك فلم يُحرك أشيل ساكنًا، ولم يهتم أدنى اهتمام. أنسيت يا بانروكلوس ذلك اليوم

الذي تكلم فيه أبوك عنك وعن أشيل؟ لقد قال والدك: «إن منبت أشيل أفضل من منبتك، وهو من حيث القوة أعظم منك أيضًا ... ولكنه أصغر منك سنًّا. ومن ثمَّ فاعمل على نصحه وإرشاده برفقٍ وحكمةٍ متى دعت الضرورة إلى ذلك، وستجده طيعًا لك، منتصحًا بوصاياك.»

إذن يا باتروكلوس العزيز، يمكنك الآن أن تحث أشيل على الذهاب إلى القتال، ويعفو عما سلف، وإننا جميعًا لنقدر له موقفه، وحتى أجاممنون نفسه قد اعترف بخطئه. فإن لبَّى نداءنا واستمع لمشورتك فنعم المواطن هو، وإلا فلا أقل من أن يقرضك عدته الحربيَّة حتى يظن رجال طروادة أنك أشيل قد عاد ثانية إلى القتال، فيطلقوا العنان لسيقانهم متقهقرين.»

هكذا أثار نسطور قلب باتروكلوس، الذي أسرع بالذهاب إلى سفينة أشيل.

دارت المعركة على أشُدِّها بين الطرواديين والأغارقة، وكانت تشتدُّ عنفًا كلما مرَّت الساعات. وكان الطرواديون يشقون طريقهم في جنون يحاولون ارتقاء الحوائط التي أقامها الإغريق. فكانوا يحتشدون وبأيديهم رماحهم قرب الشرفات غير عابئين بسيل الصخور الذي كان ينهمر عليهم من فوق الحوائط.

كانت أمام الباب صخرةٌ عاتيةٌ ضخمةٌ يتعذر على أي رجلين من أولي القوة، رفعها ووضعها فوق عربة، ولكن البطل هكتور رفعها بيد واحدة وقذف بها بقوة نحو الأبواب العظيمة المزدوجة، وقد أفسح ما بين ساقيه وهو يقذف بها، فتحطمت مفصلات الأبواب وتهشمت القضبان، وغاصت الأبواب إلى الداخل لتنفتح على مصاريعها ...

قفز هكتور إلى الداخل وهو يهجم كالأسد الثائر، وعيونه تقدح بالشَّرر، فلم يستطع أحد مقاومته أو الوقوف أمامه؛ إذْ ما كان لأي فرد، كائنًا من كان، أن يصدِّر هكتور وهو على تلك الحال غير الآلهة، فاندفع داخل الحوائط، وفي أعقابه اندفع رجاله الطرواديون، يكتسحون أمامهم الأغارقة ويدفعونهم نحو سفنهم.

ورغم كل ذلك، ظلَّ أجاكس يحارب بالقرب من البحر، ومن حوله الأغارقة وقد صمدوا وثبتوا ... ما كان أقوى ذلك الحائط من الرجال الأحياء الذين فضَّلوا أن يموتوا دفاعًا عن شرفهم ومن أجل وطنهم العزيز.

هجم هكتور كأنه صخرةٌ عاتيةٌ اقتطعتها أمواج الشتاء الجبارة من جبل على الشاطئ، فتدحرجت إلى الغابات المجاورة، محدثة دويًّا مفزعًا في الوديان، ومحطمة كل ما يعترض طريقها ... فكانت جثث ضحاياه تتراكم خلفه في أكوام، وكان المحاربون

الأقوياء يخرُّون صرعى أمامه، كما لو كانوا دُمًى لا حياة فيها. وامتزج أنين الموتى بضجيج القتال الصاخب، فخيَّل إلى الأغارقة أن الصواعق قد نزلت بهم من السماء فلم تُبقِ ولم تذر. وأعمت ظلمة الموت عيون كثيرين من القادة الأبطال، فلم يتبينوا ما أمامهم، واسودَّت الدنيا أمام ناظرهم.

عندئذٍ خاطب أجاكس هكتور بقوله: «رويدك يا هذا، ولا تظننَّ أنك تستطيع تخريب سفننا ... وخفف من غلوائك، فليس مرد نكبتنا هذه إلى شجاعتك أو مقدرتك الحربيَّة، فما أنت بالبطل الذي يقف في وجه قادة الإغريق أو يُنازل أحدهم في صراعٍ حر ... إننا لننسب ما حلَّ بنا إلى الآلهة وحدهم، وليس إلى رجال طروادة ... وعما قريبٍ ستسقط طروادة في أيدينا، ولسوف تتضرع أنت نفسك إلى زوس كي يجعل جيادك تعدو هاربة بك في سرعة الأعاصير، لتعود بك القهقرى إلى المدينة عبر السهل، والسهام تلحق بك من كل مكان.»

فأجاب هكتور على أجاكس، وقد تملَّكه الغيظ من كلماته اللاذعة التي أثرت في نفسه تأثيرًا سيئًا فقال: «يا لك من متطاوس أرعن، ومختال أهوج! اليوم سينزل الدمار بالأغارقة، وتحيق بهم هزيمة نكراء، تكون مدار حديث العالم أجمع. وأما أنت يا أجاكس، فويلٌ لك إن اجترأت على لقاء رمحي، عندئذٍ تصبح طعامًا للطيور والكلاب ...»

في تلك الأثناء، كان قلب أجاممنون قد غاص في أحشائه وهو داخل خيمته، يرتجف ذعرًا من هول فكرة الهزيمة، فأخذ ينصح من معه أن يسرعوا بإنزال سفنهم إلى البحر، والابتعاد بها بمنأى من الشاطئ. فقال لهم: «لا عار من الفرار من الدمار، ولكن العار أن ترى الهزيمة تحوطك، وأنت تكابر أمامها ولا تطلق العنان لساقيك ...»

عندئذٍ ثارت ثائرة أوديسيوس وديوميديس، عندما سمعا ألفاظ الجبن التي تفوَّه بها ملكهم، فردَّا عليه في سخريةٍ وتهكمٍ دونهما ضرب السيوف وطعن الرماح، فقال ديوميديس: «هذا مذهبك يا أجاممنون، هذا مذهب الجبن الذي لم يتعوده أبطال الإغريق. إننا لسوف نهبط إلى ساحة الوغى بالجراح التي أثخنت بها جسومنا، فلسنا ممن يُطعنون من الخلف أو تُدمى جراحنا على الأعقاب، بل نستقبل الرماح بصدورنا شأن الفرسان الشجعان والأبطال المغاوير ...»

خجل أجاممنون من نفسه، وندم على ما بدر منه، وتقدَّم إلى القتال مع فرسانه وأبطاله، حتى دام القتالُ المميتُ اليومَ بِطُوله ... وظلَّت الحرب سجالًا مدة طويلة، وكان النصر مرة حليف الطرواديين، وتارة أخرى حليف الأغارقة.

وأخيرًا تناول أجاكس صخرة هائلة، وقذفها صوب هكتور، فهوى على الأرض كأنه شجرة بلوط عظيمة أصابتها صاعقة، فحمله الطرواديون إلى معسكرهم، والدم الأسود يتدفق غزيرًا من فمه.

ضيق الإغريق الخناق على الطرواديين، وضاعفوا شدة هجومهم، وأصلوا الطرواديين نارًا حاميةً من رماحهم وسيوفهم وسهامهم، فتقهقروا إلى الوراء بعيدًا عن السفن أمام ضغط سيل الأغارقة الجارف الذي ردَّهم على أعقابهم مدحورين.

بيد أن أبولو جاء إلى هكتور وهو يلفظ أنفاسه، ونفث في جثَّته الواهنة وقلبه الضعيف، قوة وشجاعة جديدتين فتيتين.

قام هكتور ليواجه العدو من جديدٍ وقد تضاعفت قوته الأولى عشر مرات، وأخذ الإغريق يتساقطون أمامه كما تتساقط أوراق الأشجار في الخريف.

لاحظ باتروكلوس وهو يضمد جراحَ أحدِ أصدقائه، اندحار الأغارقة وهزيمتهم الشنعاء، فأصدر آهةً عاليةً وصاح بصوتٍ جهوريٍّ قائلًا: «الآن يجب أن أسرع بالتوجه إلى أشيل الذي يعرف أن الوقت قد حان كي أحثَّه على الاشتراك في القتال.»

الباب الثاني عشر

كيف قاتل باتروكلوس حتى لقي حتفه

احتدمت المعركة متسعرة، واشتد وطيسها حول السفن، سفن الإغريق السوداء، وكان أشيل جالسًا أمام خيمته يرقب من بُعد تطور المعركة، ويصغي إلى ضوضائها، دون أن تثير ثائرته أو تحفزه إلى القتال في صفوف مواطنيه، بل ظلَّ ينظر إلى أبطال الإغريق بعينين متصلبتين، وهم يتجندلون واحدًا وراء الآخر، ويسقطون على الأرض المخضبة بالدماء حتى تكدست أكوام القتلى وغطت سطح الأرض.

وبينما هو غارقٌ في تأملاته أمام الشاطئ، حضر إليه صديقه باتروكلوس يبكي والدموع تنهمر على خديه كأنها قطرات الندى على أوراق الأشجار. فسأله أشيل: «لِمَ تبكي يا عزيزي باتروكلوس؟ إنك تبكي برقةٍ بالغةٍ كأنما أنت طفلة صغيرة مدللة، تجري إلى أمها وتتعلق بعباءتها، فتعرقل سيرها، وتنظر إلى أعلى بعيونٍ دامعةٍ لتحملها أمُّها بين ذراعيها.»

تأوَّه باتروكلوس بشدة ثم أجابه قائلًا: «بين السفن ترقد أجساد أشجع رجال الإغريق وخيرتهم، مثخنة بالجراح أو ميتة. ما أقسى قلبك يا أشيل! إنك لعديم الرحمة لا تصفح ... وعلى أية حال، فإذا كنت مصممًا على أن تستمر في إحجامك عن القتال، أرجوك بربك، أن تعيرني عدتك الحربيَّة، وأرسلني بدلًا منك، عسى أن يظنني الطرواديون أشيل الصنديد، فيدبُّ الخوفُ في قلوبهم، ويستولي الذعرُ عليهم، فيصبح النصرُ من نصيبنا.»

فتأوَّه أشيل وقلبُه مثقلٌ بالهموم، مفعمٌ بالأحزان، ثم قال: «لقد سلبني هؤلاء الأغارقة جائزتي التي كسبتها عن جدارةٍ واستحقاق، يا باتروكلوس. ومع ذلك دعِ الماضي وأحداثه، فالإنسان لا يمكنه أن يستمرَّ في غضبه إلى الأبد ... لقد قلت إنني سأمتنع عن القتال حتى قدوم الطرواديين لحرق سفني، وها هم أولاء حتى حضروا إلى سفن

الإغريق، فلتأخذن عُدتي وعتادي، ولتقودن رجالي إلى القتال، ولتقصين رجال طروادة بعيدًا عن السفن، ثم لتتركنَّ للآخرين بعد ذلك مهمة مطاردتهم عبر السهل.»

في اللحظة التي تكلم فيها أشيل، كانت قوة البطل أجاكس قد بلغت ذروتها، والطرواديون يعتلون السفن في هجوم المستميت في القتال، وكانوا يحملون في أيديهم مشاعل ملتهبة تتراقص ألسنة لهيبها في الفضاء، ويصل دخانها إلى عنان السماء، كأنه سحب سوداء كثيرة العدد تحجب ضوء الشمس، وتسدل ستارًا قاتمًا على الأرض والبحر.

عندئذٍ صاح أشيل قائلًا: «أسرع يا باتروكلوس، أسرع ... ها هُم يحرقون السفن! سلِّح نفسك بسرعةٍ بينما أنادي أنا رجالي كي يذهبوا تحت إمرتك إلى ميدان القتال.»

لبس باتروكلوس بسرعةٍ حلة أشيل المدرعة، ووضع درعه وخوذته في مكانيهما من جسمه، وتمنطق بالسيف المرصع بالفضة، كما حمل في يديه القويَّتين رمحين من البرنز الثقيل. ثم اعتلى ظهر عربة أشيل، وسلم أعنة الخيل إلى أوتوميدون Automedon أمهر السائقين وأشجعهم.

وفي سرعة ريح الغرب العاتية، انطلق بايارد وبيبالد Piebald، جوادا أشيل الأصيلان، وكان إلى جانبهما بيداسوس Pedasus، وهو جواد أقل منهما سرعة.

رحَّب رجال أشيل ترحيبًا طيبًا بنداء سيدهم إلى حمل السلاح؛ لأنهم كانوا يتوقون إلى القتال كما لو كانوا ذئابًا جائعة.

صاح أشيل في رجاله بقوله: «أي جنودي الشجعان، وفرساني الأبطال، كم كنتم تلومونني لأنني في سَوْرَةِ غضبي قد أحجمت عن القتال ... فإليكم الآن معركة طاحنة من اللون الذي تحبونه وترغبون فيه، وإني لعلى يقين من أنكم ستبلون في قتالكم الطرواديين بلاءً حسنًا، يُخلِّد ذكركم، ويجعلكم مدار حديث الخاصة والعامة في كل مكان.»

ذهب رجالُ أشيل إلى سوق الوغى يقودهم البطل باتروكلوس إلى الأمام، وعند ذهابهم قدَّم أشيل في خيمته ذبيحة إلى زوس ملك الآلهة والبشر، وتضرع إليه أن يُكلل قتالهم بالنصر والنجاح، وينهي تلك الحرب التي أتت على الأخضر واليابس، وأطاحت بآلاف الفرسان وخيرة الأبطال.

خرج الأغارقة من سفنهم جماعات وفرادى، وانطلقوا يصلون الطرواديين وابلًا من السهام والرماح والصخور، كما لو كانوا زنابير قد انطلقت من خلاياها لتلدغ الصبيان الذين رجموها بالحجارة.

قاد باتروكلوس رجال أشيل وانقضَّ على الطرواديين فسقط بطلٌ من أقوى محاربيهم بضربةٍ من سيف باتروكلوس أطاحت رأسه عن جسده، فلما رأى الطرواديون ذلك تطلعوا ليروا مَن ذلك البطل الجديد الذي انضم إلى صفوف الإغريق يُحارب بهذه الشجاعة، فرأوا فارسًا يرتدي عدة أشيل ويركب نفس عربته، فغاصت قلوبهم في أحشائهم، وأدركوا أن خاتمتهم قد أقبلت؛ ظنًّا منهم أن أشيل قد عاد إلى صفوف قومه، فدبَّ الهرجُ والمرجُ بين رجال طروادة، هذا يفرُّ وذاك يكرُّ، وبعضهم يُدْبِر والبعض الآخر يُقْبِل، وانطلقوا خارجين من السفن مسرعين في النجاة بأرواحهم وقد انطفأت المشاعل في أيديهم. فانتقل ميزان الحرب إلى الخندق من جديد ... وكانت جياد كثيرة ورجال عديدون، تتلوى داخل الخندق من شدة آلام الموت المبرحة. ولكن جياد أشيل كانت تقفز من فوق جثث القتلى في سهولة وخفة، وظلَّ باتروكلوس يدفع هكتور أمامه متجهًا به صوب حوائط طروادة.

بعد ذلك أدار باتروكلوس عربته وأخذ يتعقب الطرواديين الهاربين، ويسوقهم أمامه نحو السفن. وأمام ذلك الهجوم العنيف الذي شنته جياده السريعة، كانت الجياد الأخرى تجفل وتعدو كالمجنونة، والعربات تتحطم على الأرض تحطيمًا، والرجال يروحون صرعى تحت عجلاتها، فكان ما لاقاه الطرواديون من خيولهم أشد مما لاقوه من المحاربين الإغريق.

ظلَّ باتروكلوس يضرب بحسامه البتار، ذات اليمين وذات الشمال، فيتردى قادةُ الطرواديين واحدًا وراء الآخر، حتى كان في ذلك اليوم مخربًا عنيفًا، ومدمرًا مبيدًا يحمل الخراب والدمار والموت في سيفه وجياده وعربته.

لم يصمد من زعماء الطرواديين أمام باتروكلوس، ولم يحتفظ برباطة جأشه تجاه ذلك الذي ارتدى عدة أشيل الحربيَّة البراقة، غير واحد فقط هو ساربيدون Sarpedon البطل الطروادي الجريء.

صاح ساربيدون في رجاله وقال: «ويحكم أيُّها الجبناء الرعاديد! العار كل العار يلحق بكم! إلى أين تفرون؟ ألا ترونني أقاتل بمفردي ذلك المحارب الجديد الذي ينزل الموت والدمار بالجيش الطروادي؟»

قفز ساربيدون من عربته، وكذلك فعل باتروكلوس، وقذف الأخير رمحه فلم يصب خصمه، بل أصاب سائق عربته، فخرَّ صريعًا وسقط من العربة يتخبط في دمائه. بعدئذٍ قذف ساربيدون حربته فمرقت تَطنُّ بجوار باتروكلوس، لتصيب بيداسوس الجواد الأصيل، فسقط يتلوى في التراب من شدة الألم ولفظ نفسه الأخير.

ظلَّ الجوادان الآخران يتقدمان ويتقهقران، تارة هنا وطورًا هناك، وهما يجُرَّان بيداسوس مع العربة فيعرقل سيرهما، وأخيرًا ترجَّل السائق، وفصل بسيفه جرارة العربة عن بيداسوس، ومن ثمَّ اعتدل الجوادان في سيرهما كما كانا أولًا.

أطلق ساربيدون حربته للمرة الثانية، وظن أنه قد غيبها في صدر باتروكلوس، ولكن الأخير انتحى قليلًا فمرَّ طرفها المدبب من فوق كتفه اليسرى، وفي نفس الوقت انقضَّ باتروكلوس يقذف رمحه مسددًا إلى غريمه، فلم يُخطئ هدفه هذه المرة، فقد اخترق الرمح قلب ساربيدون فأرداه قتيلًا، وارتطم بالأرض متشبثًا بالتراب الدامي بيديه الميتتين، كما تسقط الشجرة الباسقة بفأس الحطَّاب.

مر طرف الحربة المدبب من فوق كتف باتروكلوس اليسرى.

ازداد القتال عنفًا حول جثة ساربيدون، وظلَّ باتروكلوس يُجندل المحاربين الشجعان من الطرواديين، واحدًا عقب الآخر.

غير أن رحى الحرب قد اشتدت وتلظى سعيرها أكثر من ذي قبل؛ لأنه كان يحارب في صفوف الطرواديين، الرب أبولو، في غضب فتَّاك.

قتل باتروكلوس تسعة رجال كلهم من خيرة المحاربين الشجعان والمقاتلين الفرسان. ولما أحس بشجاعته وعدم استطاعة أحد الوقوف أمامه، حاول في جُرأة تسلق حوائط طروادة نفسها.

ظلَّ الإله أبولو يصد باتروكلوس عن حوائط طروادة ثلاث مراتٍ متتاليات، وعندما حاول الهجوم للمرة الرابعة، صاح فيه الربُّ بحنقٍ وغيظٍ، محذرًا إياه من محاولة مثل ذلك العمل الجريء.

عندئذٍ قاد هكتور جياده الحربيَّة صوب باتروكلوس، فقفز الأخير إلى الأرض، وأمسك بصخرة مدببة، وقذف بها نحو هكتور، ولكن الأخير قفز في اللحظة المناسبة فلم تصبه، بل أصابت سائق عربته، وحطمت صدره ورأسه، فمات لتوه وسقط من العربة دون حراك.

صاح باتروكلوس في تهكم وسخرية: «ما أرشق هذا الرجل! وما أخف غطسته! لو كان هذا بحرًا، لكان صائدَ أصدافٍ بارعًا!»

عند ذلك قفز هكتور من عربته، والتقى بباتروكلوس في قتالٍ دوَّى صوتُه كصوت ريحٍ صرصرٍ في غابة تتساقط أشجارها الضخمة على الأرض.

مالت الشمس إلى المغيب، وانحدرت أشعتها الورديَّة في الأفق كأنها نارٌ متأججة، فكان النصر في جانب الأغارقة. وقد قام باتروكلوس بثلاث حملاتٍ عنيفة، وكان يقتل في كل هجمة منها تسعة أبطال من أشجع محاربي الطرواديين. بيد أنه في الهجمة الرابعة تصدى له أبولو في سحابةٍ كثيفة، فلم يدرك باتروكلوس أنه يحارب إلهًا. وبضربةٍ عنيفةٍ من الخلف هوى أبولو على كتفي باتروكلوس العريضتين، فطارت خوذة أشيل من فوق رأسه، مقعقعة مصلصلة تحت حوافر الجياد.

أحسَّ باتروكلوس بضربة أبولو كأنما قد هدم به بناء مشمخرًّا، أو كأنما انهار عليه طودٌ شامخ، فشُلَّ بدنُه وأصابته دهشةٌ عظيمة. وبينما هو في ذهوله لِأَخْذِهِ على غرةٍ من شخصٍ لا يراه، ولا يعلم مكانه، إذا بحربة أشيل تتحطم بين يديه، ودرعه العتيدة البراقة تقرقع فوق الأرض.

وقبل أن يعرف من الذي أنزل به تلك الضربة القاصمة، قذف أحدُ رجالِ طروادة رمحه بين كتفي باتروكلوس، فخرَّ على الأرض مثخنًا بالجراح.

رأى هكتور المحنة التي حاقت بخصمه باتروكلوس، والمصيبة التي حلت به من حيث لا يدري، فانبرى إليه وغيَّب رمحه البرنزي في جسده، فسقط باتروكلوس صريعًا.

وعندئذٍ صاح هكتور قائلًا: «هذه خاتمة مطافك يا من كنت تملأ شدقيك فخرًا، وتباهي بأنك سوف تجتاح مدينتي ... حقًّا إنك سوف تدخل مدينتي لتنهش النسور لحمك وتشرب من دمك.»

فأجاب باتروكلوس في صوتٍ واهن: «إنني لا أنسب مصيري هذا إليك يا هكتور العظيم، فإنني أستطيع قتال عشرين من أمثالك وأنكل بهم، ولكن الآلهة هي التي قتلتني ... ومع ذلك فإني أقول لك بحق، إنك أنت نفسك لن تعيش طويلًا، فالموت في هذه اللحظة يقف إلى جوارك.»

ما إن فاه باتروكلوس بهذه الكلمات حتى كان الموت قد سلبه آخرَ أنفاسه حيث رقد رقدته الأخيرة في صمت أبديٍّ.

الباب الثالث عشر

نهوض أشيل

ألهب موت باتروكلوس حماس الفريقين، فاستعرت نيرانُ الحرب وزادت عنفًا وشدة.

خلع هكتور عدة أشيل من على جسد باتروكلوس الملقى على الأرض، وأمر رجاله بسحب جثته داخل المدينة، تحقيرًا لأمره، وإعلانًا لأهل طروادة بانتصار جيشهم على جيش الإغريق، ولكن الطرواديين عجزوا كل العجز عن سحب الجثة داخل المدينة لأن الأغارقة حاربوا من أجلها بعنف، ودافعوا عنها دفاع الأبطال، واستماتوا أمام جثة باتروكلوس حتى تخضبت الأرض بدماء الطرواديين الذين حاولوا الاقتراب من الجثة أو سحبها إلى داخل المدينة.

ذهب أنتيلوخوس Antilochos، الرسول السريع القدمين إلى أشيل وصاح قائلًا: «مات باتروكلوس، وها هم الآن يتقاتلون حول جثته العارية؛ لأن هكتور جرده من حلته الحربيَّة ودرعه وأسلحته، ويعمل الطرواديون جهدهم لسحب الجثة داخل أسوار مدينتهم ليشهِّروا بها، ولكن الإغريق البواسل يدافعون عنها بكل ما لديهم من حوْل وطوْل.»

سمع أشيل نبأَ موت صديقه الحميم، ورفيقه العزيز، فنزل عليه الخبر كالصاعقة، فظلَّ مدةً طويلةً صامتًا لا يتحرك، وزاغت عيناه في محجريهما، ثم أفاق من غشيته فتأوَّه بصوتٍ مرتفعٍ وانكفأ على الأرض، وسكب التراب الأسود على شعره علامة على الحزن العميق والكمد المبرح.

وصلت تأوهات أشيل العالية إلى مسامع أمه الربَّة ثيتيس وهي جالسة في قصرها في أعماق البحر الأخضر، فصعدت بسرعة من تحت الأمواج، وتوجهت إلى حيث يرقد ابنها أشيل، فرثت لحاله وحزنت لحزنه، وأخذت تصغي إليه في حنانٍ وإشفاقٍ، وهو يقص عليها قصةَ موت صديقه الحميم.

عندئذٍ قالت ثيتيس: «هوِّن عليك يا أشيل، وجفف دمعك الغالي، فلا أظن أن هكتور سيتمتع بالمجد في حلة القتال المدرعة التي كانت يومًا ما لك، والتي تلقي الرعب في قلوب الأعداء ببريقها الذي يبهر الأبصار؛ لأن الموت يطارده بشدةٍ في كل مكان، أينما ذهب وحيثما أقام ... لا تذهب الآن إلى القتال يا بني، وانتظر حتى أعود إليك بحلة مدرعة جديدة، أجمل وأمتن من التي استولى عليها هكتور.»

قالت ثيتيس هذا ثم رحلت، تاركة أشيل ينتظر رجوعها إليه بالحلة، ولكنها ما إن غادرت المكان واختفت، حتى قدمت إيريس رسولة الآلهة الفاتنة، وخاطبت أشيل الحزين، في لهجةٍ سريعةٍ فقالت: «إن الطرواديين سيسحبون جثَّة باتروكلوس داخل طروادة الكثيرة الأعاصير، إذا لم تذهب الآن ... فما عليك إلا أن تُظهر نفسك فقط لرجال طروادة، دون حاجة إلى قتال؛ لأنهم سيرهبونك يا أشيل، وإن الحاجة ماسَّة إلى باتروكلوس صديقك.»

سمع أشيل كلام إيريس، وذهب إلى ميدان الوغى بلا عُدةٍ ولا عتاد، ووقف إلى جانب الخندق يصيح بصوته الجهوري، فألقى صوته الرعب في قلوب الأبطال والمحاربين، وجرى كل طروادي مرتاعًا ملتاعًا، يشقُّ لنفسه طريقَ الفرار، كأنهم حمُرٌ مستنفرة فرَّت من قسورة. فاستطاع الإغريق أن يسحبوا جثَّة باتروكلوس من بين جثثِ القتلى، وبكى أشيل بكاءً شديدًا، وسكب الدموع غزيرةً سخينةً على صديقه الذي كان أوفده ليقاتل بدلًا منه، فمات ميتة تقوم مقام النصر إذ فاته النصر.

استمر بيت الخالدين طوال تلك الليلة يردد صدى ضربات المطرقة على السندان، بينما كان هيفايستوس Hephaestos، الرب الأعرج، يصنع أسلحة جديدةً لأشيل.

ألقى هيفايستوس في أتونه كمياتٍ كبيرةً من البرنز والفضة والذهب، ليصنع منها درعًا وعُدَّة حربيَّة وأسلحة لأشيل، وكانت وصيفاته المذهبات يساعدن سيدهنَّ بإدارة الكير العظيم الذي يزود البواتق الضخمة بتيارٍ شديدٍ من الهواء، يجعل ألسنة النيران البرتقاليَّة اللون تتراقص في الفضاء متوهجة.

لم يملك أحد في الوجود قاطبة، درعًا جميلةً كالتي صنعها هيفايستوس لأشيل، وكذلك صنع له صدريَّة مدرعة أنصع من لهيب النار، وخوذة ذات قنبرة مذهبة تخطف ببريقها الأبصار.

انقضى الليل، وتبددت جحافل الدجى، ولاح الفجر يلمع بسيفه الفضي في السماء، وصاح الديك معلنًا قدوم الصباح وولادة يوم جديد، فهبطت ثيتيس من جبل أوليمبوس الجليدي حاملةً بين ذراعيها هدايا هيفايستوس الرائعة إلى ابنها أشيل ...

الرب الأعرج يصنع أسلحة جديدة لأشيل.

ما كان أعظم سعادة أشيل وهو يرتدي حلته الحربيَّة الجديدة التي أحضرتها له والدته ... وكم كانت صيحة الحرب التي انبعثت من حنجرته بالغة مروِّعة، وهو يحث المحاربين الإغريق على الإقدام والاستبسال في القتال ... فلم يتخلف منهم رجلٌ واحد، مهما كانت جراحه شديدة، بمجرد سماع صوت أشيل وهو يناديهم للقتال من جديد ...

كان أجاممنون ملك الأغارقة مصابًا بجرحٍ بالغ، ولكنه مع ذلك سار مع المحاربين، وهناك حيث أشرقت الشمس بأشعتها الذهبيَّة على كثيرٍ من المقاتلين العاجزين عن القتال، والذين زحفوا مع الجيش زحفًا، إكرامًا لخاطر أشيل. كان كل من أجاممنون

وأشيل يحادث زميله في مودة ومحبة، كأن لم يحدث ما يعكر صفو صداقتهما متناسيين نزاعهما السابق.

واجه الأغارقة الطرواديين في نشاطٍ متجددٍ كأنهم يبدءون الحرب من جديد، متعطشين إلى القتال بشجاعةٍ فذةٍ وبسالةٍ لا نظير لها، في وسط السهل الفسيح … وكما تندلع ألسنة النيران وسط فضاء مملوء بالهشيم الجاف يوم ريحٍ صرصرٍ عاتية، كذلك توغل أشيل في سَوْرة غضبه وسط جموع الطرواديين، الذين ما كانوا ليتوقعوا اشتداد المعركة بتلك الدرجة، وما حسبوا حسابًا للأحداث التي حاقت بهم في ذلك اليوم.

دفع أشيل الطرواديين الهاربين صوب نهر سكاماندر Scamander، فاصطبغت مياهه بلون الدماء الحمراء التي سالت من أجساد الطرواديين الذين قتلهم أشيل دون رحمةٍ ولا شفقة.

ما كان أقسى أشيل في القتال ذلك اليوم، لقد قدَّ قلبه من الجلمود، فلم يعرف للرحمة معنًى، ولم يدرِ ماهية الشفقة، بل كان يتهلل بِشرًا وهو يرى أبطال طروادة يخرون صرعى أمامه، الواحد تلو الآخر، فتصبغ دماؤهم بحمرتها مياه سكاماندر السريعة الجريان حتى ليخاله الرائي نهرًا من الدماء الساخنة.

ضجَّ نهرُ سكاماندر من كثرة القتلى الذين سقطوا فيه من جراء قسوة أشيل، فصاح هذا النهر قائلًا: «لقد غُصَّ مجراي بجثث ضحاياك يا أشيل، وأنت لا تزال تذبح وتقتل! ألا تخفف من حدة بطشك رحمة بهؤلاء التعساء، ورفقًا بشبابهم الغض النضير؟»

لم يأبه أشيل لقول النهر، ولم يُعِرْه أي اهتمام، بل ظلَّ في قسوته يضرب ذات اليمين وذات الشمال، مجتاحًا السهل من أوله إلى آخره طولًا وعرضًا، تاركًا وراءه أكوامًا من الجثث التي تتساقط في كل مكان، كأنما هو موكل بحقل من الغلال يحصده.

لما رأى نهر سكاماندر أن البطل أشيل لا يلتفت إلى كلامه وتوسلاته، غضب غضبًا شديدًا، وفاض في سيل جارف ضده، كاسحًا أمامه جثث القتلى، محاولًا الفتك بأشيل بطوفانه الجارف، والقضاء عليه بأمواجه العاتية الصاخبة.

ما كادت أمواج النهر تصطدم بدرع أشيل الجديدة، حتى أمسك أشيل بجذع شجرة دردار باسقة، وانتزعها من جذورها، وألقى بها في وسط مجرى النهر السريع ليعوق تياره الجارف. فكفَّ النهر عن غضبه لحين من الزمان … بَيْد أنه ما كاد أشيل يفر خائفًا عبر البحر، حتى كان النهر العنيد قد شنَّ عليه هجومًا جديدًا، مقتفيًا أثره في هَزِيم شديد حتى لحق به.

لما رأى أشيل أنه لا قِبَلَ له بالنهر القوي، صاح إلى الآلهة طالبًا معونتهم، فهبَّت لمعونته الربَّة الفاتنة أثينا، ومن جديدٍ طفق أشيل يطارد رجال طروادة حتى بلغ بهم حوائط المدينة.

شاهد بريام العجوز — وهو داخل حوائط المدينة — جميع الأعمال الباهرة التي قام بها أشيل ... وعندما اقترب أشيل بحلته البراقة التي تتلألأ كالنجوم الساطعة وسط السماء، وهمَّ هكتور للقائه، صاح بريام خوفًا على ابنه، يحذره فقال: «أتوسل إليك يا ولدي العزيز ألا تقاتل هذا الرجل، إنه أقوى منك بكثيرٍ يا هكتور، فلا تذهب إليه حتى لا تفجعني فيك وأنا حزين الفؤاد، وقد بلغت من الكبر عتيًّا.»

كان هكتور في شدة الشوق إلى القتال، ولا سيما إلى الانتصار على هذا البطل حتى يلهج بذكره الركبان، ويكون حديث العالم أجمع في كل مكان وزمان. فلم ينتصح بنصيحة أبيه، إذ كان هو الوحيد بين جميع الطرواديين الذي لم يتطرق الخوف إلى قلبه، ولا الذعر إلى فؤاده.

ولما رأت والدة هكتور الشمطاء ما يعتزم عليه ولدها، أخذت تبكي بدموعٍ حارةٍ، وتتوسل إليه أن يعود أدراجه، ولا يقدم إلى حتفه بنفسه، بعد أن رأى جميع مواطنيه يحجمون عن قتال أشيل. ولكن هكتور لم يلتفت إلى كلام أمه كذلك، واتكأ على درعه اللامعة بجوار إحدى القلاع في انتظار مجيء من يُسمونه «السفاك الأعظم».

قدِم أشيل فالتقى به هكتور وجهًا لوجه، وتراشقا رمحًا ضد رمح ... وكما ينطلق الشهاب في الظلام، كذلك انطلقت حربة أشيل عندما قذف بها لتخترق عنق هكتور، فسقط بمفرده يتخبط في دمائه قتيلًا أمام حوائط مدينته طروادة.

وهكذا انتهى القتال ...

أما عن الابتهاج والفرح اللذين عمَّا الجيش الإغريقي من أوله إلى آخره، فحدِّث عنهما ما شاء لك الحديث ولا حرج، فقد ظلَّ الجيش الإغريقي اثني عشر يومًا كاملة في سرورٍ وغبطة، وأقيمت الولائم العظيمة، ونُحرت الذبائح للآلهة شكرًا على هذا النصر المبين.

ظلَّت جثة هكتور طوال هذه المدة ملقاة على الأرض دون أن يدفنها قومه؛ لأن الأغارقة كانوا قد ربطوه إلى خيولهم السريعة، وسحبوه إلى السفن الراسية على الشاطئ، بينما وقفت أمه وزوجته أندروماخي تراقبانه من شُرفة قصره، وهما تبكيان حزنًا وأسًى.

هكتور يتخبط في دمائه قتيلًا أمام حوائط طروادة.

وأخيرًا ذهب بريام المسن إلى المعسكر الإغريقي، وسجد أمام أشيل، وتوسل إليه أن يرقَّ قلبه لكبر سنه، فيعطيه جثة ابنه هكتور. فحنَّ عليه أشيل ورثى لحاله، وسمح له بأخذ جثة ابنه، والعودة بها إلى طروادة وسط عويل النساء.

ما أشد حزن أم هكتور على ولدها، فبكته بكاءً مرًّا حتى تقرَّحت مآقيها؛ لأنه كان أعز جميع أبنائها. كما بكت عليه زوجته أندروماخي بدموعٍ سخينةٍ، بللت ثيابها، وأضنت جسدها، وأذبلت نضارتها وشبابها.

وجاءت هيلين إلى جسد هكتور، وأخذت تبكي بقلبٍ كسيرٍ وفؤادٍ مكلوم، وسكبت عليه دموعًا غزارًا وهي تقول: «وا حر قلباه، وا فجعتي فيك يا أعزَّ إخوتي ... لم أسمع

منك قطُّ لومًا أو كلمة تسيئني ... بل كنت نعم المؤازر بحلو الألفاظ ورقيق العبارات ... ما كان أطيب قلبك ... وا لِعظم الخسارة وفداحة المصاب، أيُّها الصديق الصدوق ... لم يعُد لي ببلاد طروادة من يشفق عليَّ بعد وفاتك، فلْتَسقِ قبركَ الغوادي مَرْبعًا بعد مَرْبع.»

جمع الطرواديون كومة حطبٍ عالية، وضعوا عليها جثمان هكتور، ثم أشعلوا فيها النار التي ظلَّت تتأجج حتى أتت على جسده. فوضع أصدقاؤه عظامه البيضاء في وعاء من الذهب الخالص، وأقاموا فوقه كومة عظيمة من الأحجار الضخمة حتى يستطيع الجميع أن يروا مقرَّ عظامه.

لم تكن الحرب بين الأغارقة والطرواديين قد انتهت حتى تلك اللحظة، فقد جاء الموت إلى أشيل في هيئة رمح صوبه إليه باريس من قوسه.

أما باريس فقد قذفه مجذومٌ منبوذ — بمحض الصدفة في جنح الليل البهيم — بسهمٍ مسمومٍ أرداه قتيلًا ... وبينما ترقط ثلوج الشتاء بيضاء فوق جبل إيدا، لفظ باريس آخر أنفاسه بين أحضان هيلين الجميلة، التي كانت أُسَّ العداء وأساس البلاء.

جاء يوم حرق فيه الأغارقة معسكرهم، وأبحروا إلى وطنهم عبر البحر الأشهب المتلاطم الأمواج، تاركين وراءهم حصانًا عظيمًا من الخشب ... فجاء رجال طروادة وسحبوه إلى داخل المدينة كتذكارٍ لتلك الحرب الشعواء، ودليل انتصارهم على الأغارقة الذين صنعوه.

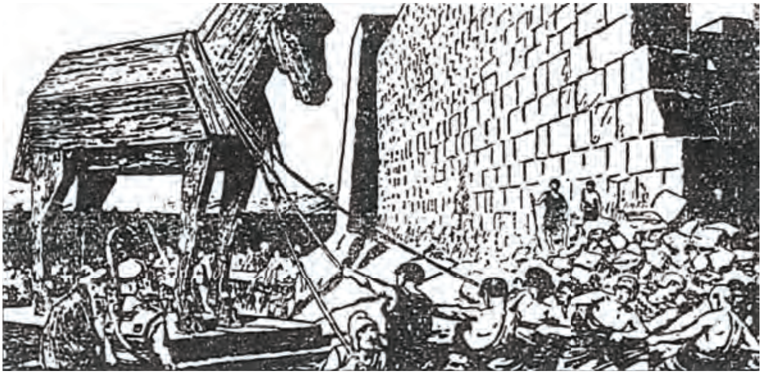

حصان طروادة.

وكان الأغارقة قد أخفوا داخل الحصان بعض أبطالهم الشجعان. فلما أرخى الليل سدوله القاتمة، ولفَّ الكون في عباءة دكناء، وبينما يتناول الطرواديون طعامهم، خرج الإغريق من مكمنهم، وفتحوا أبواب المدينة على مصاريعها ... فأقبل جيشُ الأغارقة من البحر ثانيةً، واقتحموا المدينة دون عناء. وهكذا سقطت طروادة بين لظى النيران وسفك الدماء، ومع ذلك لم تمت هيلين ... بل عاد بها مينيلاوس ثانيةً إلى مملكته عن طريق البحر، لتحكم كملكة ...

هكذا رجعت هيلين إلى وطنها ... هيلين التي جلبت الأسى والموت لكثيرين، كما جلبت على مدينة طروادة ويلات وهمومًا لا طاقة إلى احتمالها ...

هنداوي